جمعة محمد جمعة

المراهقون

روايـــة

الغلاف بريشة الفنان مكرم حنين

مكتب النيل للطبع والنشر
١٢ شـــارع عبـــده بدران
ميدان الباشا ـ المنيل
ت : ٣٦٢٢٥٧٨

رقم الايداع بدار الكتب
١٥٩٧٦ /٩٨

الترقيم الدولى
977-5414-13



إهـــــداء

عزيزى القارئ

يسرنى أن أهديك هذه الرواية ، وكلى امل ان تحظى بالقليل من وقتك ، وأن تنال بعض إهتمامك ، وبذا اكون قد ربحت الكثير من تقديرك .

وإلى زوجتى وأولادى احمد وعفاف ويحيى باقة حب ..

جمعة محمد جمعة



(١)

يقطع بائع اللبن الشارع وقسط اللبن الكبير فى يده ، الشارع هادئ تماما ، مازال خلق الله يغطون فى نوم عميق ، تململ عزوز فى رقدته فوق الطوار ، إنقلب على جانبه الأيسر ، لاصق وجهه جدار البيت ، المعلم شفيق يدب فوق أرض الشارع بقبقابه الضخم ، رفعت الكلاب رؤوسها وتعرفت عليه ، رفع باب المقهى ، كفت العصافير عن الزقزقة ، أحدث رفع الباب الصاج صريرا أزعجها ، طارت ثم حطت ثانية فوق الشجرة ، القى بائع اللبن التحية عليه ، أسرع المعلم شفيق يحمل الوعاء ليأخذ حصته المعتادة من اللبن ، عاد الى الداخل، دفع دلفتى النافذة المطلتين على «ميضة» سيدى عباس ، تمتم بصوت واضح:

- يارب ، إجعل يومنا نادى ، وارزقنا من حيث لانحتسب ..

عاد الى النصبة ، أشعل وابور الغاز ، ثم تركه حتى يتبدد الدخان وأمسك بالمقشة ، يدفع بالكناسة الى الخارج ، توقف للحظة وباب بيت المعلم بدر يئز ، خرجت أم عبدالله الى عرض الطريق ، أراقت دلوا امتلأ بالماء ورغاوى الصابون .

- صباح الخير يامعلم شفيق ..
- يسعد صباحك ..
- هى الساعة كام ؟

رفع كم جلبابه ، نظر الى الساعة فى معصمه وغابة من الشعر الأسود تحيط بها:

- الساعة ستة ونص ..

تركت أم عبدالله الباب مواربا ، ترك المعلم شفيق المقشة متكئة على سور المقهى المصنوع من الخشب ، أسرع الى وابور الغاز الذى كاد ينطفئ ، دفع الكباس عدة مرات ، إرتفع صوت اللهب ، وضع فوقه برادا إمتلأ بالماء ، ثم عاد للإنتهاء من عملية التنظيف ، الرش ورص الكراسى..

عجلات عربة كارو تدور فوق أرض الشارع ، يكاد حمارها من ضعفه يتهاوى ، وقفت أمام بيت عزوز ، إرتفع صوت صاحبها : سماح ... بنت ياسماح ..

إنطلق صوت أم سماح من البيت المواجه لبيت عزوز : حاضر ياحاج ..

ألقى الحاج حزم الفجل، الكرات ، البقدونس ، الكزبرة والشبت أمام نافذة صغيرة تعلو الطوار بنصف متر ، ثم سحب حماره وانصرف ..

يتابع المعلم شفيق بعض الأقدام المتجهة الى أعمالها ، يرشف الشاى بصوت مسموع ، يضع فى فمه بين الرشفة والأخرى لىّ البورى، وفى نفسه أمنية على وشك التحقق، قريبا يتسلم ابنه أمين العمل فى شركة الترام ، سيعمل سائقا ، يخلع الجلباب الموروث ويلبس البدلة مثل حسنى أفندى ، يخرج صباحا ويعود ظهرا ، يقبض راتبه فى أول كل شهر..

نهض عزوز ، تثاءب ، هرش جنبيه ، خلع طاقيته ، مشط شعره بأصابعه ثم أعادها ، جلس مستندا بظهره الى الجدار وهو يصيح : بنت يازينب ..

نظر الى عربته ، فوقها إصص الزهور المختلفة الألوان والأشكال ، انتعشت أوراقها وتراقصت مع نسمات الصباح ، عاد الى النداء فى غضب :

– إنت يامقصوفة الرقبة ..

خرجت أم سماح من باب البيت المفتوح دوما لأنه أصلا مجرد فتحة للدخول والخروج :

– صباح الخير ياعزوز .. على فين العزم إن شاء الله ..

– الزمالك والدقى ، مشوار مصر الجديدة امبارح هد حيلى ..

ثم قام ودخل الى البيت ..

شمرت أم سماح أكمامها ، رصت بعض أقفاص من الجريد مقلوبة فوق الطوار ، رصت حزم الخضر ، أحضرت دلو ماء رشته فوقها ، قطرات الماء تتساقط ، صنعت بعد تجمعها بركة صغيرة من الماء ..

بدأ الصخب والضجيج ، الكلاب تجرى وتلهو خلف بعضها ، النوافذ فى البيوت على جانبى الشارع تفتح مثيرة ضجة ، النداءات تترى من كل مكان ، تلاشى صوت زقزقة العصافير الذى كان يسمع منذ قليل ، ومن أول الشارع حتى آخره..

تنحنح المعلم بدر وهو يخرج من الباب الموارب ، قطع عرض الشارع ودلف الى المقهى : صباح الخير يامعلم شفيق ..

– صباح النور يامعلم بدر ..

شمله المعلم شفيق بنظراته وهو يعد له الشاى والبورى ، هو ككل يوم ، جلبابه الأسود وعمامته البيضاء ، والتلفيحة الحريرية على كتفه الأيسر ، يمسح بأصابعه شاربه الكث الأسود ، برزت فى هذا الصباح بعض تجاعيد الزمن ، لكنها تبددت مع إنطلاقة صوته القوى : بنت يانجاة .. يابنت ..

أطلت نجاة من الباب الموارب وهى تلملم شعرها فى منديل الرأس الأسود :

- حاضر ياباپا ..

- حضرى الكارتة ..

- حاضر.

المعلم بدر يتناول الشاى ويدخن البورى ..

المعلم شفيق يدير مؤشر الراديو العتيق يمنة ويسرة، ينبعث صوت الغناء عاليا، يخفض الصوت ، يعود ليجلس بجوار المعلم بدر يشاركه تدخين البورى ..

بدأت طريحة العمل اليومية ، نجاة تخرج الحصان من البيت ، أمها تحضر الماء والصابون ، نجوى ترفع باب الدكان الملاصق لباب البيت ، وتشد الكارتة الأنيقة ، الفاخرة ..

وفى ناحية أخرى ، عزوز يسرج الحمار فى عربة الزهور ، ، زينب ترش الماء عليها ليزداد تألقها ، الحمار يرفع حوافره ويدق بها فوق الأرض نافضا عن جسمه الذباب الذى يعف ، ويلدغ ..

دلف الى المقهى بعض الزبائن المعتادين ، الأستاذ حسنى الموظف بالمنطقة التعليمية ، وعضو هيئة التحرير ، ثم الاتحاد الأشتراكى ، يؤدى كافة الخدمات لأهل الحى لدى المصالح الحكومية ، معروف للجميع بالنزاهة والشرف والأمانة .. المعلم عيد الجزار ، زوج سعاد أخت أم عبدالله ، يرفل فى جلبابه الأبيض ، وحذائه الأسود اللامع كشعره الأسود الذى يعتنى بصباغته كل أسبوع ، تضوى الخواتم الذهبية فى أصابع يده اليسرى ، رزمة من المفاتيح الغليظة فى يده اليمنى يضعها فوق المنضدة الصغيرة أمامه ..

بصوته الجهورى سأل المعلم بدر عديله المعلم عيد عن أحواله ، أعلن دهشته لخروجه المبكر على غير العادة ، شاركه المعلم شفيق نفس الدهشة ، تنهد المعلم عيد وقال : حياتى مع سعاد تقصر العمر..

- كل شئ وله آخر ..

وضع المعلم عيد سيجارة بين شفتيه ، وبدأ فى تناول القهوة ..

أسرجت نجاة الحصان فى الكارتة ، نهض المعلم بدر ، تربع فوقها شامخا كالطود ، ناولته اللجام ، انطلقت به الكارتة وانطلقت وراءه دعوات أم عبدالله وبناتها ، وراءه عزوز يجر عربته ، ينهر الحمار بين الحين والحين بالعصا ، وزينب تدفع العربة من الخلف كمساعدة للحمار على الجر ..

ملأت الشمس السماء والأرض ، داعبت عيون العذارى ، شدت النوم من عيون الأطفال والصبية ، خرج الى الشارع مهرجان الأطباق الفارغة ، إرتفع صوت بائع الفول المدمس فى ندائه اليومى ، اجتمعت حوله النسوة والأطفال فى مظاهرة وتزاحم ، بينما بعض الأطفال فى ثيابهم الرثة ، وعيونهم المملوءة بالصديد ، ووجوههم الملطخة بآثار النوم يلعبون ويجرون ، خرجت سماح متألقة فى جلبابها الأصفرالمشجر بورود صغيرة خضراء ، ألقت بضفيرتها وراء ظهرها، ابتسمت لأمها محيية ، مصمصت الأم شفتيها : نوم العوافى ، بقينا الضهر ..
ردت سماح فى دلال : الله بقى..

تطلعت الى شرفة فى الطابق الثانى من البيت المجاور لبيت عزوز ، هزت رأسها بالتحية ، كان كامل منصرفا الى تدخين سيجارة ، فلم يأبه لتحيتها ..

غادر كامل الشرفة ، ظهر أمام باب البيت ، نظر اليها ، ثم يمم وجهه صوب الشارع العمومى متوجها الى عمله ، ودعته بابتسامة صافية وهمست :

– مع السلامة ياحبيبى ..

(٢)

وقف سعيد التلميذ بالمدرسة الاعدادية ، يحمل كتبه تحت إبطه عند الناصية كعادته ، يرى الشارع من أوله الى آخره ، ينظر فى سعادة الى بنطلونه الرمادى وقميصه الأبيض ، صفف شعره بعناية قبل مغادرته البيت ، وفى قدميه لبس صندلا من الجلد بنى اللون ، يمشى بضع خطوات ويتراجع فى خيلاء ، لمح عمه شفيق بباب المقهى فانزوى داخل الزقاق خشية أن يراه، ويؤنبه لتخلفه عن المدرسة ، أو إبلاغ أبيه فينال علقة ساخنة ، أو يحلف أبوه يمينا بالطلاق من أمه ، وقد يمنع عنه

مصروفه لعدة أيام ، عاود الظهور بعد دخول عمه المقهى ، إنتقل الى الطوار الآخر ، أخرج من شفتيه صفيرا عاليا ، أطلت على أثره بطة إبنة سعاد من الشرفة ، أومأت له ، لحظة وكانت أمام باب البيت ، إنطلقت صوب الشارع العمومى ، وسعيد فى أثرها حتى حاذاها وأمسك بيدها : صباح الخير ..

- صباح النور .. إنت مزوغ النهاردة ..

- إنت أخرتينى .. من الصبح وانا واقف عند الناصية باستناكى ..

- كنت تعبانه .. أمى طول الليل بتتخانق مع جوزها ..

ضغط سعيد يدها وهمس : موعدنا الليلة ..

نظرت اليه مبتسمة ، قالت فى تبجح ودلال وهى تمط الكلمات :

- إنت طماع ، قعدت معاك أكتر من ساعتين إمبارح ، على فكرة أنا بدأت أخاف أحسن عمك يشوفنا ..

- يشوفنا !! إزاى ؟

- إنت عارف شباك القهوة قدام باب الميضة على طول ، يشوفنا واحنا داخليـــن ، أو واحنا خارجين .. إنت عارف ، جوز أمى يموتنى ..

وقف سعيد متفكرا برهة ، ثم صاح : ايه رأيك فى بيت أم سعد ؟

- يالهوى ، البيت المهجور ؟

- أحسن مكان ، وان شالله نقعد للصبح ..

سحبت يدها من يده ، إنعطفت فى حارة ضيقة تفضى الى السوق :

- مع السلامة إنت ..

- إياك تتأخرى ..

- حاضر .

عاد سعيد وقد انتهى من تحديد مكان لقائه مع بطة ، ووجد المبرر الذى يسوقه لعودته من المدرسة مبكرا ، وقف عند ناصية الزقاق يراقب نجوى وهى تتدلل فى مشيتها أمام البيت ، تكنس الأرض وصوت على كشك يناوشها بالكلمات ترد عليه فى ابتسام : بطل معاكسة ياكشك .

- إمتى تبقى حلالى يانجوى ؟ إمتى أبوك يوافق .. وبعدين كشك ده اسم أبويا ، أنا اسمى على ..

- إتوكل على شغلك ..

- أمرك ياست الكل ..

لعق على كشك شفتيه بلسانه وهو يرمق مؤخرتها تترجرج مع كل حركة من حركات جسمها ، وسطها المكتظ باللحم يتراقص ويتقصع ، يحلم بالليلة التى تجمعه مع جسدها الممتلئ البض فوق فراش واحد ، تذكر رفض المعلم بدر ولعنه ، تمنى له الموت ، ومشى يحلم ويتمنى ..

تلعن نجوى فى سرها أباها ، فهى موافقة ، وأمها موافقة ، أما هو فرفض ، توقفت عن الكنس ، وهى تلمح خالتها سعاد واقفة بباب بيتها فى قميص نوم أحمر من الساتان ، يضوى تحت أشعة الشمس ، ويشد العيون من حدقاتها ، حين بصقت على الأرض وهمت الدخول الى البيت ، كانت سعاد تقترب منها :

- أمك جوه يابنت ..

لم ترد نجوى ، دلفت وخالتها الى البيت ، وارتفع صوت صياحها ، معنفة نجوى :

- نهارك اسود ، الظاهر نهايتك قربت ..

تمسك سعاد بكتفى أختها أم عبدالله وتصيح :

- والله العظيم ، ورحمة أمى وأمك ، إن عيد دخل عندك تانى لأخرب بيتك ..

قالت أم عبدالله فى استكانة :

- ياسعاد عيب ، هوه أنا خطافة رجالة ، ربنا يخلى لنا المعلم بدر ..

صفقت سعاد بيديها قائلة : تعمليها ياأختى ، تخطفيه لواحده من بناتك ..

قالت أم عبدالله فى خوف : عيب ياأختى الفضايح ..

استمرت سعاد تهدد ، تشتم وتلعن ، شيعت نجوى خالتها بعينين ثائرتين ، حاقدتين ، وهمست : حاضر .. لك يوم ياسعاد ..

إنصرفت سعاد مغتاظة ، لكم تود أن تفتح نجوى فمها بكلمة واحدة ، لكم تود أن تمسك بها من شعرها وتجرجرها على الأرض ، وتضربها علقة يحفظ تاريخها الحى كله ، كان المعلم شفيق قد خرج على صوتها ، وحين رآها خارجة من بيت أختها قال : ياصباح الأنوار .. الجميل زعلان ليه ؟

- ولا حاجة يامعلم ..

هرولت الى بيتها ، جلست على بسطة السلم متضايقة ، مغتاظة، لم يشف غليلها معركة طول الليل مع زوجها ، انقبض صدرها وهى تتذكر تهديده لها

بالطلاق ، تعرف بالسليقة أن هناك امرأة أخرى ، ينقصها التأكيد ، والدليل ، تراه يهتم بنفسه ، بملابسه ، يضع العطور ، يتألق يوم أجازته ، يخرج من أول النهار ولايعود إلا فى آخره ، يتعلل بأنه كان فى المدبح ، أو سافر يشترى مواشى ، لكنها لاتصدق ، ليست المرة الأولى ، مرات عديدة يتشابه هذا التغيير ، تطارده ، تراقبه، تعرف المرأة التى غيرته ، تحاربها حتى تقطع صلتها به ، ويعود اليها مستسلما ، يطلب الصفح ، يدفع الأموال بسخاء حتى ترضى عنه ، لايزيد رضاها عن مشاركته الفراش كل ليلة ، وفى سبيـــل تلك المتعـــة يبذل كل مافى وسعه ، هذه المرة هنـــاك نذير، تحسب له ألف حســـاب ، فلو طلقهـــا ، يستحيل أن تعود إليه إلا بعد زواج بآخر ..

تركت سعاد بسطة السلم الى الكنبة بجوار النافذة ، تنتظر بطة لتفش غلها فيها، ضحكت وعم أحمد بائع الكشرى يمسح صلعته بيده المتسخة بالإدام ، راقبته وهو يسحب كرسيا من المقهى ، يضع فوق آخر الصينية الكبيرة ويصيح :

- العدس من الصعيد ، والرز من رشيد والمكرونة صنع الإيد ياكشرى .

إجتمع حوله لفيف من الأطفال ، كل يحمل طبقا ، إنهمك عم أحمد فى البيع ، صلعته تبرق تحت أشعة الشمس ، كلما اتسخت يده مسحها فى جلبابه المعفر بالتراب ، السميك بفعل القدم ، يقوم بعد ذلك بالإنتقال الى حوارى وأزقة الحى حتى يبيع مافى الصينيه كله ، ثم يختفى ليظهر آخر النهار وقد ارتدى جلبابا نظيفا ، يجلس بالمقهى يلعب القمار حتى يذهب كل ماكسبه طول يومه ..

التقت عينا سعاد بعينى سعيد حين مر أمام البيت فسألته :

- ماشفتش بطة ياسعيد ..

- راحت السوق ..

كأن فى مجيئ بطه خلاص روحها ممـا تعانيه ، تركت مجلسها ، أخذت تلف وتدور فى الحجرة كحيوان أسير ، رفعت صينية الشاى بأكوابها وطوحت بها على السلم صارخة : بنت الكلب ماتنضفش البيت قبل ماتخرج.

قبل أن تمسك بشئ آخر تنفث فيه غضبها ، سمعت دبيب أولاد الساكنة فوقها ، صعدت الدرجات صارخة : يعنى مافيش فايده ، لازم الخبط والرزع فوق دماغنا..

قالت الساكنة فى خوف : دول الولاد بيلعبوا ياأختى ..

- يلعبوا فى الشارع ياستى، مش عاجبكم الباب يفوت جمل ..

ارتفع صوت سعاد ، انطلق الى الشارع بالشتم والسب واللعن ، لاذت الساكنة بحجرتها وأغلقت الباب ، تنهال خبطات سعاد بيديها حتى كاد الباب يترنح تحت ثقل جسدها الذى يرتطم به ..

- افتحى ياوليه الباب ،مالكيش قعاد فى بيتى بعد النهارده ..

هرول المعلم شفيق ، وفى أثره الاستاذ حسنى ، صعدا الدرجات ، حين سمعت الساكنة صوتيهما فتحت الباب على اعتقاد انهما سيحولان بينها وبين سعاد ، إمتدت يد سعاد تجلبها من شعرها ، كادت تلقى بها فى بئر السلم لولا أن أمسك بها المعلم شفيق ، بينما يربت الاستاذ حسنى على ظهر سعاد :

- هدى نفسك ،مش كده..

- تخرج من بيتى حالا ، اذا كنتم رجالة نفذوا طلبى حالا..

قال المعلم شفيق : طيب ..حاضر .. بس إديها فرصة تدور على سكن..

- ماليش دعوة .. تخرج من بيتى النهارده ..

ثم نادت صبيا من جمهرة الواقفين ، قالت له : إجرى ياواد قول لحسين يسحب عربيته ويبجى حالا ..

هرول الصبى، فرت الساكنة إلى الشارع ، جلست على الطوار تبكى وتلطم خديها ، بعض النسوة حولها تمصمصن الشفاه ..

جاء حسين بالعربة الكارو فى الحال ، أمرت سعاد الرجال والنساء بنقل عفش الساكنه على الفور ، مهددة بالقائه من النافذة الى الشارع ، بدأ الناس فى تنفيذ الأمر، والساكنة ترجو وتلح فى الانتظار حتى يعود زوجها من العمل ، لاأحد يستمع رجاءها .. أخذت الرأفة قلب إمرأة تملك بيتا فى الزقاق ، طلبت نقل العفش اليه ، لديها حجرة تحفظ فيها أشياؤها المستغنى عنها ..

عادت البسمة الى وجـــه سعاد ، دعت المعلم شفيـــق والاستاذ حسنـــى لتنـــاول الشـــاى ، لبيا دعوتهـــا فرحين ، خامرهما شعور بأنهما أديا خدمة جليلة للست سعاد..

عادت بطـة من الخارج لتجد الجمهرة أمام البيت ، إنتحى بها سعيد جانبا وقص عليها ماحدث ، إبتسمت بطة وقالت : الحمـــد لله ، فشت غليلها فى غيرى المره دى ..

ثم إردفت وهى تخلص يدها من يده : أمى مايقدرش عليها إلا ربنا ..
وهرولت فوق درجات السلم سعيدة بما جرى ..

(٣)

انبعث حديث النسوة فى الحى ثانية حول المعركة التى شهدها الجميع بين سعاد والساكنة المطرودة ، اذ انفصل المعلم عيد عن سعاد بالطلاق ، كل محاولات الصلح بينهما باءت بالفشل وتبددت كل المساعى هباء ، وتغير وجه سعاد ، برزت التجاعيد التى كان يخفيها الطلاء ، برزت هالتان سوداوان تحت عينيها ، إرتدت الجلباب الأسود ، اعتادت الجلوس أمام باب البيت وحولها النسوة يثرثرن فى شتى الأحاديث ، والقيل والقال ، وتبادل الشائعات ..

تؤكد سعاد أن ماقيل عن بعض أسباب طلاقها بعيد تماما عن الصحة ، فلا هو منظر العرى الذى ظهرت به فى الشارع ، ولا هو ظهور إمرأة أخرى فى حياة زوجها ، وتحلف بأغلظ الإيمان الكاذبة أنها طردته من البيت بعد أن سئمت الحياة معه ، وأنه لا أمان لرجل ، وتتذكر أيام عطلته عندما يستيقظ مبكرا ، يغتسل ، يسرف الكثير من الوقت فى تلوين شعره بالصبغة ، يخفى علامات الكبر ، وينزل بالخمسين من عمره الى الثلاثين ، وتقف أمامه :

– على فين ان شاء الله ..

– عندى ميعاد فى السلخانة ، المعلم طلبنى إمبارح بالتليفون .

منذ شهر تقريبا ، خرجت وراءه ، واستقل تاكسيا، تابعته فى آخر ، زاغ منها وسط الزحام ، سبقته الى السلخانة ، وانتظرته ولم يأت ، تيقن لها ماكان استنتاجا ، عادت الى البيت ، قلبها يتقلب فوق الجمر ، نظراتها ترسل أشعة نارية الى بطة وتود أن تفتك بها لتفرغ الغضب من صدرها ، ترى احمد ابنها منه يملأ البيت صخبا وضجيجا ، تود أن تمسك أذنه باصبعيها ، وتلعن أباه ليبلغه لعناتها ، جفناها دائما الحركة ، وما أن عاد حتى هبت صارخة فى وجهه واشتعلت نيران معركة ، منذ ذلك اليوم والمشاجرات تتجدد بينهما حتى وقع الطلاق .

وتأخذها الذكريات إلى أول يوم رأته فيه ، حين جاء يطلب استئجار حجرة فى بيتها تصحبه زوجته ، توطدت علاقتها به فى أول أسبوع ، تمده بالمال لما يعانيه من حالة البطالة ، وتأتى له بالسجائر والمخدرات ، وأصبحت الأمسيات لاتضم فى جلساتها الصاخبة غير المعلم عيد وسعاد وابنتها بطة ، ولاتتورع سعاد عن معاكسته أو ملامسته ، أو الهمس فى دلال، لم تستطع زوجته إحتمال مغازلاتها ففرت إلى أهلها ، تاركة زوجها ومنقولاتها ، أقرت أمام أهلها بخطئها الزواج منه ، وأنه كالكلب يظل دائما ابدا على حاله ..

كان هروب زوجة المعلم عيد فاتحة لأبواب الخير جميعا لسعاد ، بدأتها ذات أمسية ، حين غمزت لبطة بعينيها ، فتركتهما وحدهما ، أمسكت بتلابيبه بعد أن شقت صدر قميصها ، وصاحت :

– ياتتجوزنى دلوقتى ياإما أصرخ والم عليك الناس .. وتبقى فضيحة بجلاجل ..

ضحك المعلم عيد وقال وهو يضع سنة الأفيون فوق لسانه :

– بس كده ، إبعتى هات المأذون ..

ظنت أنها وضعت يدها على كنوز قارون ، وأن مفاتيح الجنة صارت فى يديها ، وتزوجا ، وعاشا بضعة أسابيع ينهلون من ماعون العسل فى نهم ، تخرج بطة كل يوم الى سعيد حبيبها لتقص عليه ماتسمعه ويدور كل ليلة فى حجرة أمها ، الجدران تنقل اليها كل همسة ، كل ضحكة، كل تنهيدة أو صوت مسموع لحركة، ويمسك سعيد بنهدها ويضغطه بين أصابعه : زى كده ..

تتأوه فى سعادة ولذة وهى تهمس : آى .. عيب عليك ياسعيد..

فيرد : أمال بتحكى لى ليه ؟ مش عشان أجرب فيك ..

ظنت سعاد أنها أمسكت بلجامه ، أعتادت أن تقدم له الرغبة فى شتى صنوفها ، والمتعة على كل أشكالها وألوانها ، ولكنها فوجئت ذات صباح بابهام يدها اليمنى الملوث بالصماد ، ولعب الفأر فى صدرها فهرولت إلى صديقتها شافية زوجة المعلم شفيق وأرتها ابهامها ، صاحت شافيه وهى تخبط صدرها :

– يالهوى ، أحسن يكون بصمك على حاجة ..

– حاجة زى أيه ..؟

قالت شافية محذرة : إسمعى ياسعاد ياأختى ، اللى حصل ده يخليك تخاف منه ، جايز يكون بصمك على وصل أمانه ، أو عقد بيع وياخد منك البيت ..

ونصحتها أن تحصن نفسها ..

صحبت شافية سعاد الى قسم الشرطة ، تحرر محضر بالحادث وطلب المعلم عيد للمثول أمام وكيل النيابة الذى إحتجزه للتحقيق داخل زنزانة القسم .. وفى اليوم التالى ذهبت إليه سعاد تزوره ، قدمت إليه الطعام والسجائر قالت :

- أنا مستعدة أتنازل وأطلعك ، بس أعرف بصمتنى على إيه ؟..

أخرج المعلم عيد حافظته ، قدم لها ورقة بيضاء ملبلة ببصمة إبهامها ، وأقسم أغلظ الأيمان أنه لم يأخذ بصمتها على شئ آخر ، وأنه سيظل بقية حياته كما تريد هى ، رق قلبها ، قدمت تنازلها عن البلاغ ، وحين نشرت الحادثة فى باب الحوادث بإحدى الجرائد إحتفظت بالجريدة ، واعتبرتها سابقة له كسكين مسلط على رقبته ، تهدده به فى أى وقت ..

عاش المعلم عيد زهاء سنة ، يلهث وراء رغباته ، أسرته سعاد بمواهبها الفذة ، جسدها البض الممتلئ ، قمصان نومها المثيرة ، الضحكات ذات الرنين، إضافة الى المزاج ومايتطلبه من مسكرات ومخدرات ..

اتفقا ذات يوم على أن تفتح له دكانا للجزارة ، ولما كانت إمكانياتها بالكاد تفى بالمصاريف ، ظلت تفتش حتى عثرت على محل مجهز ، أغلقه صاحبه لقلة رأس المال ، ذهبت إليه وفاوضته وتحرر عقد اتفاق ، لها حق النصف والمعلم سليمان حق النصف ، والمعلم عيد بأجر يومى محدد ، وقامت سعاد بتدبير رأس المال اللازم وبدأ المعلم عيد يزاول مهنته تحت رقابة سعاد اللصيقة ، كل يوم تذهب الى الدكـــان ، تقضى فيه فترة مابعد الظهر الى أن يحين موعد الإغلاق فتصحبه عائدة الى البيت .. لم يرق هذا الوضع للمعلم عيد ، فهذا الوضع لم يمر به فى حياته العريضة تزوج فيها عدة مرات ، أغلبهن من زبائن الدكان ، أسرتهن كلمات غزله ، وابتساماته ، ثم تزوجن به ، غنمن من ورائه الأموال ، اقتنين العقارات ، وضعن أيديهن على محلاته بعد طلاقهن منه ، حكى لها بنفسه تاريخ حياته كمسلسل يومى فى سويعات إشباع الرغبة ، والتى يكون فيها مغيب العقل تحت تأثير الثمالة ، ومثار إلى درجة دفع أى شئ ولو حياته لقاء إشباع رغبته ..

إجتمع شيطانهما ذات ليلة ، قررا الاستيلاء على نصيب سليمان فى الدكان بطريقة أو أخرى ..

فى آخر الاسبوع دعى سليمان الى العشاء ، للحصول على نصيبه فى الأرباح ، أعدت لوازم السهرة طعام يضم المحمر والمشوى ، زجاجات البيرة ، قرش الحشيش ،

وبعد أن انتصف الليل ، قام المعلم عيد قائلا :

– بعد إذنك يامعلم سليمان ، نازل لغاية الشارع أشترى حاجة ..

هز المعلم سليمان رأسه وهو فى غيبوبته لايدرى ماقيل ، وبمجرد خروج المعلم عيد من الحجرة ، قامت سعاد ، خلعت جلبابها ، مزقت صدر قميصها ، جلست على مبعدة من المعلم سليمان وهو يبحلق فى بلاهة ، يطل لسانه فى دهشة ، حين سمعت صوت أقدام زوجها صاعدة الدرج أخذت تنهنه ، دخل المعلم عيد متصنعا الغضب وصاح : فيه أيه ياسعاد ؟

قالت من خلال نهنهاتها : المعلم سليمان حاول يعتدى عليه ..

أعلن المعلم عيد غضبه ، جلب سكينا من فوق المنضده وضع خصيصا لوقت الحاجة ، هدد المعلم سليمان :

– بقى ياراجـــل ، أنزل خمـــس دقايق ، آجى آلاقيـــك مبهــدل مراتـــى .. تخوننى ياسليمـــان ..

يحلف سليمان بأغلظ الإيمان بعد أن تبددت كل الثمالة من رأسه ، وجد نفسه فى موقف لو أشيع عنه فالخراب لبيته وأسرته ، وعائلته ، وسمعته ، لكن المعلم عيد قال : لازم أدفعك التمن ، ده شرفى ياسليمان ..

قال سليمان فى تلعثم بعد أن خيل اليه أن أى ثمن فى متناول يده .. لكنه فوجئ بالمعلم عيد يطلب منه تنازلا عن نصيبه فى الدكان .. وجم المعلم سليمان للحظات ثم قال : حرام عليكم ، نص الدكان مرة واحدة ..

قالت سعاد : مش حرام ، ولو نلت غرضك منى يبقى حلال ..

قال سليمان متوسلا : ياست سعاد ، أنا قربت ناحيتك ..

– أيوه ، وقطعت قميصى كمان ، ممكن أصرخ دلوقت وألم عليك الناس ..

إرتعب المعلم سليمان والمعلم عيد يضع أمامه ورقة وقلما :

– اكتب التنازل ياسليمان ..

هز سليمان رأسه مستسلما : حاضر ، أمرك يامعلم عيد ، فوضـت أمرى الى الله ..

تناول المعلم سليمان القلم بيد مرتعشة ، وقبل أن يبدأ الكتابة قال المعلم عيد :

– قبل ماتكتب .. أمسك اعصابك ، نعمل لك شاى ..

– عملتم مافيه الكفاية ..

كتب التنازل ، وقع عليه وخرج يهرول ، يسقط فوق الدرجات ، يقوم ويسقط، خرج الى الشارع يجرى ، يتعثر فى ذيل جلبابه ، يسقط ليقوم ويعاود الجرى ..

وجاءهما بعد يومين خبر سقوطه مريضا بالشلل ..

خرجت سعاد من بئر الذكريات بهزة من رأسها ، هتفت :

– اعمل ده كله عشانك ، ياكلب ، والآخر تطلقنى ..

لم يكن الطلاق مشكلة بالنسبة لسعاد ، فقد طلقت منه مرتين وعادت اليه ، المشكلة فى أنه هذه المرة أفلت من يدها ، الشرع يحرم عليها العودة إليه إلا بعد زواجها بآخر ، لايشكل الشرع بالنسبة لها أو له مشكلة ، إنما كلام الناس ، الذين يعرفون ، سيقولون للذين لايعرفون ، لاذت بصديقتها شافيه ولم تجد لها حلا :

– إلا كده ياسعاد ، الحى كله يعرف إن دى الطلقة الثالثة .. إنتى عارفة ياحبيبتى ، المرتين اللى فاتوا ، رحت معاك للعراف وعمل اللازم ، رجع عيد يخبط بابك براسه ، ومستعد لكل طلباتك ، المشكلة دلوقتى فى الناس .. لازم تصبرى شويه لما الناس تنسى ..

بعد الطلاق عاشت سعاد مرحلة إنعدام وزن ، غاضبة على الدوام ، لاتسلم بطة ولا احمد من شتائمها ، وايذائها ، لاتجد وسيلة لاسترداد المعلم عيد دون دفع ثمن باهظ ، يكفى أنها ستفقد مكانتها فى الحى ، لن يخافها أحد ، لن يعمل أحد لها ألف حساب ، ومن ناحية بطة ، كانت هى الأخرى غاضبة من تصرفات أمها معها ، الطامة الكبرى أنها حالت بينها وبين لقاء حبيبها سعيد ، لا فى النهار ولا فى الليـل ، ولا التطلع من النافذة .

وفى إحدى جلساتها مع شافيه ، تمخض اللقاء عن محاربته عن طريق المحكمة، وبالفعل ذهبت الى الأستاذ حسنى ، شرحت له قضيتها ، لها نصف الدكان ولم تحصل على ربع منه منذ افتتاحه ، وأشار عليها الأستاذ حسنى بتكليف محام لرفع دعوى حراسة فى محكمة الأمور المستعجلة ..

وبدأت سعاد المشوار ..

كان جمع من النسوة يجلسن مع سعاد أمام باب بيتها ، يتناولن أخبار الحى ، وسكانه . لفتت أنظارهن عربة كارو تحمل منقولات ، خلفها سارت عزيزة فى ثوب عصرى ، تبدو على سماتها آثار التمدين، وجهها يطل الحسن من تقاطيعه ، مشيتها تدل على دلال طبيعى ، تساءلت النسوة فيما بينهن عنها ، تطوعت واحدة للوقوف على الخبر اليقين ، وقامت لتتبع العربة ..

كانت سماح تقف الى جوار عم أحمد تلتهم طبق الكشرى ، تطلعت نحو عزيزة وقالت : والنبى حلوة ياعم أحمد .

قال باسما : إنت أحلى منها ياسماح ، لو لبست زيها ، وحطيت على وشك الأحمر والأخضر ، تبقى أحسن منها ، يجرى وراك كل الشبان ..

نظرت سماح إليه غير مصدقة ، تركت بقية الكشرى فى الطبق ، ذهبت لتجلس إلى جوار أمها ، أصابها الذعر حين رأت عزيزة تدخل البيت الذى يسكنه حبيبها كامل ، والعفش ينقل إليه .

تقافزت أمام عينيها أحلامها ، حلمها بأن تحب ، وتتزوج شابا يرتدى البدلة فى الشتاء ، القميص والبنطلون فى الصيف ، تسكن شقة بها حجرة للنوم ، وحجرة للجلوس، ستائر تغطى النوافذ ترتفع عن البدروم ، والبيت الطينى الذى تعيش فيه مع أمها ، ورأت فى كامل فتى الأحلام ، وحامل أختام سيدها سليمان ، أحبته ، وتعلقت به ، تقف كل صباح مرتدية أحسن جلاليبها ، منتعلة فى قدميها الشبشب ، ملفوف شعرها فى الإيشارب الذى اشترته من مولد سيدها عباس الذى يقام بالحى كل عام ، ورغم ذلك لم تغضب لعدم اهتمامه بها ، وتجاهله لها فى الصباح وعند عودته فى الظهيرة ، وحين جلوسه فى البلكونة فى المساء ..

على الفور أدركتها مشاعر الخوف من الساكنة الجديدة . إنتابتها حالة من التعاسة ، تناقلت أفواه النسوة اسم عزيزة ، وسماح تتوجس الخطر منها على حبها لكامل .. أخذت تتحسس السبل التى ترقى بها الى مستواه ، وتلفت نظره اليها ،

وإلى حبها ، تمنت الحصول على فستان أنيق كالذى ترتديه عزيزة ، حذاء لامع، وحقيبة تعلقها فى كتفها ، بهذه الأشياء يمكنها أن تضع نفسها فى طريقه ، أن تتحدث إليه ، وأن تروق له ، تجتذبه ، وتعلن له حبها .. أخذت تفكر فى التدابير التى تحقق لها أحلامها ، وفجأة إعتلت رأسها فكرة توجب التنفيذ فى الحال ..

علمت سعاد بكل مايدور فى الحى حول الساكنة الجديدة، إسمها ، إسم زوجها وعمله ، مكونات منقولاتها قطعة قطعة، انبعثت فى ذهنها أمنية تمنتها يوما ما ، ونسيتها فى غمار حياتها مع زوجها ، كانت تلك الأمنية هى زواج بطة من كامل ، فهو ابن الحى ، تربى فيه ، تربطها بأسرته أواصر صداقة ، بل وقدمت لها بعض الخدمات .

تذكرت وقوفها إلى جانب أسرة كامل حين حدث خلاف مع سكان الشقة التى إستأجرتها عزيزة ، كان الفضل لها فى طردهم منها ، بعد عدة منازعات وصلت الى قسم الشرطة ، بكلمة منها أنهت المشكلة ، وحين خلت الشقة أشارت عليهم بترك أمر الشقة لزواج إبنهم كامل ، ورتبت نفسها على الايقاع به فى حبائل إبنتها .. لكن شغلها أمر نفسها عن ابنتها ، لم تدرك الا مؤخرا أن بطة فارت ، ونضجت ، أصبحت كاملة الأنوثة ، وينبغى تزويجها ، وهاهى تفاجأ بعزيزة تسكن الشقة ، انهار جزء من حلمها .. لعنت المعلم عيد فى سرها ، ثم صاحت فى النسوة ..

- ياللا يامرة إنت وهى ، كل واحده تشوف وراها إيه ..

إنفض الجمع ، صعدت الى شقتها ، وجلست الى جوار النافذة فى شرود ..

(٥)

كامل شاب رياضى ، يتمتع بقوام وسط بين النحافة والبدانة بين الطول والقصر، يراه الناس دائما فى حاله ، لايتصل من قريب أو بعيد بشباب الحى وأغلبهم أصحاب حرف ، لم يسلكوا طرق حياتهم عبر التعليم ، يحمد الناس فيه خلقه ، يعود من عمله ظهرا ، يجلس فى البلكونة فى بعض الأحيان ، يخرج لملاقاة أصحابه بعيدا عن الحى ، يعرف أغلب سكان الحى ، وهم يعرفونه ، يتهمه البعض بالكبر والغرور،

يرى فيه البعض الآخر ممن أحسوا به عن قرب شابا يصلح أن يكون قدوة لأمثاله ..

كان البيت الذى يعيش فيه يتكون من ثلاثة طوابق ، يسكن وأسرته الطابق الثانى ، الأول استأجرته العديد من الأسر، إستقرت فيه الأسرة الأخيرة التى تضم بينها البنين والبنات ، وضعت الأم عينيها عليه لتزويجه ابنتها الكبرى ، وكانت هناك حجرة تحت السلم تسكنها أرملة لديها طفل صغير ، تكد وتكدح بالخدمة فى البيوت لتوفير مصاريف الإعاشة لها ولإبنها ، فى الطابق الثالث سكنت عزيزة وزوجها وقد مضى على زواجهما أكثر من خمسة عشرة عاما ولم ينجبا ، كان لعزيزة أم عجوز ، كفيفة البصر تسكن أطراف الحى ، وعن طريق معارفها دبرت هذا السكن لابنتها ، اعتادت أن تزورها مساء كل يوم ، تؤنس وحدتها حتى يعود زوجها حيث كان يعمل فى أطراف المدينة ، ولايعود قبل العاشرة ليلا .

كانت أسرة كامل تضمه وأخ أصغر فى المدرسة الثانوية ، أسرة متآلفة ، متحابة ، يعود أبوه من العمل فى حوالى الخامسة كل يوم ، يتناولون العشاء ، يجلسون مع ضيف يأتى ، أو مع بعضهم حتى يغادر كامل البيت فى الثامنة أو التاسعة ليلتقى بأصدقائه ، يعود فى منتصف الليل ، ورغم تبرم أبوه وأمه من السهر كل ليلة فى الخارج إلا أنهما يحمدان له عدم انغماسه مع شباب الحى الفاسد بعكس أخيه الأصغر الذى وطد صداقته مع ابن سكان الطابق الأول وأصبح فى حكم المتوقع زواجه مستقبلا من الإبنة الوسطى ، كما توطدت صداقته مع بعض الشباب ، لاحظ كامل أن أغلب أصدقاء أخيه الذين يتردد عليهم فى بيوتهم لديهم أخوات ، وتأكد أن حرص أخيه على التأنق فى شكله ، والاعتناء بالمظهر ليس إلا عوامل جذب للفتيات .. ورغم محاولة الأسرة دفع كامل إلى الزواج إلا أنه كان يرفض عن إقتناع بأن سن الرشد الحقيقى للشباب هو الثلاثون وفيه يقدر على تحمل المسئولية .

توطدت أواصر الود بين عزيزة وأسرة كامل ، أقعد المرض أم عزيزة فى بيتها ، تذهب عزيزة لزيارتها أثناء النهار ، تقضى الأمسيات مع أسرة كامل ، يستمعون إلى المذياع ، يتحدثون ، يسمرون ، تبدلت بعض أحوال كامل فصار يقضى أغلب الأمسيات فى البيت ، ظنت الأسرة أنه بدأ يستقيم على إعتبار أن سهره كل ليلة خارج البيت سلوك غير حميد ..

أقبل صيف شديد الحرارة كاد يحرم كامل من نوم الظهيرة الذى اعتاده ، لكنه

تغلب على حرارة الفراش بأن يرشه ببعض الماء حتى يأخذه سلطان النوم ، تعودت الأسرة قضاء المساء كله فوق السطح ، يضعون الوسائد ، يتسامرون تحت ضوء القمر ، أو في الظلام حال غيابه ..

ذات أمسية من تلك الأمسيات المظلمة ، كانت الأسرة مجتمعة فوق السطح ، جاءت جلسة عزيزة إلى جواره ، وظهريهما يستندان الى جدار السور ، وفي غمرة الضحك شعر كامل بيد عزيزة تمسك بيده ،، تتحسسها ، تضغطها ، إندلع شجار بالشارع ، هب الجميع وقوفا للفرجة على المتشاجرين ، قام كامل مجزوعا ليقف لكن يد عزيزة الممسكة بيده أعادته ثانية ، مالت بوجهها ناحيته ، تلامست شفاهيهما للحظة خاطفة ، فقد كامل على أثرها وعيه ، دار به السطح ، لفت حول رأسه نجوم السماء البعيدة ، إمتلأت خياشيمه بعبير أنفاسها ، أهاجت مخيلته أحلام اليقظة ، تترى مشاهد الحب والغرام، والقبلات التي رآها في السينما أمام عينيه ، إنفض الشجار ، وعاد أفراد الأسرة إلى اماكنهم ، سأله أخوه بغتة : مالك ؟

– ولا حاجة ، دماغي واجعاني ..

كانت درجة حرارته عالية ، لو كان هناك بصيص ضوء لتبين الجالسون الاحمرار الذي كسى وجهه ، والعرق الغزير الذي نضح منه ..

انتهت الأمسية مبكرا على غير العادة ، إذ جاء خبر بأن خاله مريض ، على الفور قامت أمه وتبعها أبوه لزيارته ، قامت عزيزة لتنزل إلى شقتها ، نزل أخوه على أثر صفير أصحابه المعتاد له ، وبقى كامل فوق السطح وحده ، بعد برهة ناداه أبوه ، وأعطاه مفتاح الشقة وهو يسأل : اذا كنت خارج نخليه معانا ..

قال بصوت عال ، يقصد وصوله الى عزيزة : لأ .. أنا قاعد ..

دلف الى الشقة ، هم أبوه أن يغلق الباب وراءه ، استوقفه كامل :

– خليه مفتوح يرطب الشقة ..

إستلقى كامل على ظهره فوق الكنبة ، يعاود ذهنه إستحضار لحظات القبلة الخاطفة ، يشعر بلذتها تسرى من شفتيه إلى دمه ، إلى أجزاء جسده كله ، يقوم ويقف أمام باب شقة عزيزة ، يرى خيالها خلف زجاج الشراعة الإنجليزى المغبش تروح وتجئ ، يهبط الدرجات مهرولا على أطراف أصابعه ، ظل قرابة نصف الساعة في حالة من الهياج ، يصعد ويهبط ، يجلس ويستلقى على الكنبة ، عيناه عالقتان بالسقف ..

إنتبه للحظة ، سمع خطواتها تهبط الدرج ، توقفت قدماها أما باب الشقة

المفتوح ، فكر أن يندفع اليها ، أن يحتويها بين ذراعيه ، أن يقبلها قبلة طويلة ، دقت الباب بأطراف أصابعها ، توجه إليها ، دون أن ينبس بكلمة ضمها إلى صدره فى قوة الشباب ، أطبق على شفتيها بشفتيه ، وهى تحاول التخلص فى هدوء ، مجرد أن حررت شفتيها قالت وابتسامة كبيرة تملأ ثغرها :

- ليه كده ياكامل ؟؟

لم يحر جوابا ، لايستطيع التحكم فى خلجة واحدة من خلجات جسده الذى ينتفض ، قبلها على خديها ، تركها واقفة ، إستلقى على الكنبة ، دخلت عزيزة فى أثره وقالت مرة أخرى : ليه كده ياكامل ؟؟

ألقت بنفسها فوقه فى قبلة طويلة أخرى ، ثم نهضت وخرجت تهبط الدرجات مهرولة إلى الشارع ..

أحس كامل بالفرحة ، تمنى أن تعود ، وأن تعيد الكرة ، إستيقظت فى قلبه مشاعر الحب ، إستولت عليه إحساسات المتعة ، إمتلأ صدره بالسعادة لإدراكه أنه مرغوب ، وأنه لن يكون بعد اليوم بين أصدقائه مفلسا من العاطفة ، عديم الخبرة بالحب ، قليل التجارب ، أحس أنه يمسك بتلابيب فترة المراهقة قبل أن تتركه ، ويبدأ يعيش أول قصة حب إيجابية فى حياته ، قصص الحب التى عاشها فى خياله ، أو من طرف واحد تتوالى على مخيلته مندحرة مهزومة ..

فى ذات اللحظة ، تخيلها أمام عينيه ، جسدا فاتنا تغطيه غلالة رقيقة كاشفة ، نهدان متدليان يتراقصان ، ذراعان بضان ، شفتان مبتسمتان توجهان إليه نداء العطش للإرتواء ..

ذهبت آثار المتعة بعد وقت طويل ، قام من استلقائه الى الحمام يأخذ حماما ، يبدل ملابسه وينعش بدنه ، يستعد للخروج للقاء الصحاب بعد عودة أبويه ..

(٦)

فرحت بطه حينما علمت بخروج أمها ، دون أن تدرى وجهتها ، تستعجل

اللحظات ، ظلت تتابعها وبصحبتها شافية ، حتى إنعطفتا فى الحارة التى تفضى إلى الشارع العمومى ، تركت النافذة ، إرتدت جلبابا نظيفا ، مشطت شعرها ، تقصعت أمام مرآة الدولاب ، جذبت أخاها من يده ، آمرة :

- أنا رايحة مشوار ، إلعب قدام البيت ، إوعى تروح بعيد ..

هرول أحمد الى الشارع ،أطلت من النافذة ، أشارت لسعيد ، رد على إشارتها بإشارة مثلها ..

مشت تتلفت وراءها ، اقترب سعيد ، حاذاها ، أمسك بيدها ، خرجا الى الشارع العمومى ، جذبها نحو محطة الترام .. على فين ياسعيد ..

- ح نروح الكورنيش .. عارفاه ..

- كنت بأشوفه من التاكسى أما ياخدنا جوز أمى للكازينو ..

مشيا - بعد أن غادرا الترام جنبا الى جنب ، يتلاصقان ، تلقى برأسها فوق كتفه ، ينفصلان ، يشدها من يدها ، تجرى منه ، يلحق بها ، يحيطها بذراعيه ، يخطف من ثغرها قبلة ، تبتعد عنه ، يضحكان ..

جلسا تحت شجرة عتيقة على مقعد رخامى ، تعتمل فى نفس كل منهما رغبات طائشة ، تريد أن تضغط صدرها فى صدره ، أن تلهب وجهه بأنفاسها الساخنة ، وهو يريد أن يعض شفتيها بأسنانه ، أن يعتصرها بين ذراعيه ، يريدان سويا نفس الشئ ، نفس النوع من الحب ، تتقمصها شخصية أمها مع زوجها قبل الطلاق ، تخلع جلبابها ، يبرق قميص نومها الأصفر الساتان ، تحرر نهداها ، تتأوه ..

- عقلك راح فين ؟

سألها سعيد ، خلعت عنها شخصية أمها وقالت : عقلى وقلبى معاك ..

أمسك يدها بين راحتيه يتحسسها : ياحبيبتى ..

قاما ، مشيا على الطوار ، تنظر إلى النهر بفرح طفولى ، تقطف زهرة تقدمها إليه .. طلب منها اللقاء بعد العشاء فى بيت أم سعد ، خبطت صدرها بيدها :

- يالهوى ياسعيد ، عايزنى أدخل البيت المهجور ده ..

- أنا معاك ياعبيطة ..

كلاهما يعرف قصة بيت أم سعد ، المرأة العجوز ، التى عاشت وحدها فيه ، لاأحد يعرف أسرارها ، تخرج صباحا ، وتعود ليلا ، تضئ شمعة فى حجرة تشغلها ، وبقية البيت يقف فى الظلام كأشباح تبث الرعب فى القلوب ، تصادف يوم أن رآها عزوز وهى تستجدى المارة فى الدقى ، وأشاع عنها أنها تمتلك ثروة ..

ماتت أم سعد ، قيل بعد موتها أن لها ورثة أغنياء يترفعون عن الحضور واستلام إرثهم ، وقيل أنها جاءت نازحة بعد حرب فقدت فيها الزوج والإبن ، وقيل أن لها أخ شقيق هاجر لبلد آخر بعد قيام حملة الإعتقال للاخوان المسلمين ، كثرت المقولات وتعددت الإستنتاجات ، وجاء يوم نسى الناس فى غمرة مقولاتهم ماأشاعه عزوز عنها ، منذ موتها وهو يفكر فيها ، أخيرا ترك لزينب العربة ، ولم يخرج يوما معها لبيع الزهور ، يراقب البيت ، يرسم الخطط لإقتحامه ، والعثور على الثروة التى خلفتها وراءها ..

عاش عزوز أحلام يقظة كثيرة ، يرى نفسه ثريا ، يملك الكثير من المال والعقارات ، يجلس بالمقهى طوال اليوم ، يتناول الرواد مشروباتهم على حسابه ، الكل يعمل له ألف حساب ، تغير سلوكه ، بدأ يشرب الخمر الرخيص ، ويعود بعد غياب ساعة أو بعضها مترنحا ، يجتمع حوله بعض الشباب ، يسخرون ، يقهقهون ، لايعلم أحد أنه يحتسى الخمر لتبثه الشجاعة والقدرة على اقتحام البيت والكشف عن الكنز المخبوء فيه ..

بعد فترة تمنع وافقت بطة على اقتراح سعيد ، تبادلا الابتسام ، ثم أخذت خطواتهما تقودهما الى الحى ، وهما غارقان فى نشوة اللقاء المنتظر ..

حين عادت فوجئت بأمها أمام باب البيت ، يقدح الشرر فى عينيها ، حولها عدد من النسوة ، أمسكت بها من شعرها : فين أخوك يابنت الـ .. والـ..

بطة تصرخ وتقول : كان بيلعب هنا ..

- وانت كنت فين ؟

أقبل صبى مهرولا ، ذيل جلبابه بين أسنانه ، وقف يلهث ويقول : احمد مش فى الدكان

ضربت سعاد صدرها بيدها صارخة : يامصيبتى ، يبقى أبوه هربه عند حد من قرايبه ..

ثم انهالت بكلتا يديها ضربا على جسد بطة :

- عشان يعجبك ، عشان تنبسطى ، أهو الواد طفش ..

تفرق الجمع بناء على أوامرها للبحث عن أحمد ، كل فى الاتجاه الذى أمرته بالبحث فيه ..

إنقضى النهار فى البحث عن أحمد .. أحيط أبوه علما فأغلق الدكان ، جاء مهددا متوعدا ، قضى فترة بعد الظهر جالسا فى المقهى ، يدخن ويتناول القهوة ، المعلم شفيق موزع بين الجلوس معه وتلبية طلبات الزبائن ، يستغل فترات جلوسه المتقطعة فى الحديث عن إعادة المياه إلى مجاريها ، من أجل الولد ، ومستقبله .

إنضم اليهما بعد صلاة المغرب الأستاذ حسنى ، وكان مع المعلم شفيق فى الرأى ، أعلن استعداده لإجراء المفاوضات مع سعاد ..

كان استعداد المعلم عيد قليلا بدأ يزداد ، يرتفع ، وقد نجحت سعاد فى الحصول على حكم قضائى بفرض الحراسة على الدكان ، تطالبه بآلاف الجنيهات نصيبها فى الريع ، وهو لايملك منها ألفا واحدا ، يتفق مع المعلم شفيق والاستاذ حسنى فى الرأى بالرجوع إليها إذا هى تنازلت عن القضية ، ويجد فى ذلك مغنما له ..

قام الاستاذ حسنى على الفور بالذهاب إلى سعاد أمام باب البيت ..

- عايزك فى أمر مهم ..

إنطلقت نظراتها الى المعلم عيد عبر الشارع ، تعلقت عيناها بعينيه للحظات ، ثم دلفت الى الداخل .. تعالى ياحسنى ..

صعد حسنى السلم وراءها ، جلس يتحدث إليها فى أمور الصلح ، وبعد أن استمعت الى إقتراحاته ، قالت : يبقى عارف الولد فين ، أقطع دراعى إن ماكان هو اللى مخبيه

- مش معقول ياأم احمد ، الراجل قفل باب رزقه وجه على طول ، ده قاعد عمال يفكر الواد راح فين ، عند مين ، وزى مابتتهميه هوه راخر بيتهمك ، إنت ممكن تقولى لنا أحمد فين ؟

- جرى إيه ياحسنى ، إنت تصدق إتهامه ..

- لأ طبعا ، وبرضه مش ح أصدق إتهامك ، الواد كده ح يضيع ، وح ترجعوا تندموا ..

أطرقت سعاد برأسها قليلا ، ثم رفعتها قائلة : أنا موافقة ..

أعلن الاستاذ حسنى موافقتها للمعـــلم عيد ، اللى قاطعه : فيه مشكلــة عايزه حل ..

قال المعلم شفيق : عايزين محلـــل ، كل الحتـــه تعـــرف انه كان آخر طـــلاق لها ، والشرع ..

قال حسنى مقاطعا : مهمتك يامعلم شفيق تشوف حد وياخد له قرشين ..

قال المعلم شفيق محاولا الخروج من المأزق : ماتجيـب حد من صبيـانك يامعلم عيد ..

– مش ممكـن طبعـا ، أشغلـه بعد كده إزاى ، وسمعتى وسط الجزارين .. لأ يامعلم شفيق .. لأ ..

استغرق كل منهم بعض الوقت فى التفكير ..

ارتفع صوت أحد الرواد ينادى : أحمد ياكشرى .. الترابيزة مستنياك ..

رد أحمد وهو يعبر أمام المقهى .. جاى حالا يا أصحاب السوء ..

إتجهت أنظار الثلاثة نحو عم أحمد بائع الكشرى ، اتفق الثلاثة على أنه الزوج الصورى المطلوب ، تبادلوا النظرات ، قال حسنى للمعلم شفيق :

– مهمتك بقت سهلة ، اتفاوض معاه ..

أحس المعلم شفيق بالضيق ، يدرك أنه لامفر ، قال بعد أن تردد قليلا :

– لما الزباين تمشى والقهوة تفضى ، أتكلم معاه ..

كانت سعاد على يقين بأن كل من ذهبوا للبحث عن أحمد لن يعودوا ، ماعدا إبنتها بطة التى جابت حوارى الحى وأزقته ، وبرفقتها سماح ، خرجت إلى الأحياء المجاورة ، حتى تعبتا ، جلستا على الطوار ، تعلن بطة عن خوفها من أمها ، تبكـى ، تلعـن أمها وزوج أمها ثم تلوم نفسها لأنها السبب ، تحاول سماح أخذها الى البيت :

– يمكن لقوه ، حتقعدى فى الشارع لإمتى ..

ظلت سماح تشدها من ذراعها ، بعد الحاح قامت بطة ، وحين دخلت على أمها جرت وألقت بنفسها عند قدميها تقبلها وتغرقها بدموعها : سامحينى ياأمى .. سامحينى ..

أمسكت سعاد بكتفيها : قومى يابت ، بطلى بكا ، قومـــى شوفى لنـا حاجـــه ناكلها ..

تطلعت بطة الى وجه أمها ، رأت ابتسامة على شفتيها ، همت بأن تسأل ،

رفستها أمها بقدمها : قلت لك قومى ، مش عايزة أسمع ولا كلمة .. فهمت ..
فهمت بطئ ، وانصرفت الى اعداد العشاء ..

(٧)

كانت سماح فى قمة السرور والنشوة ، أضفيا على جمالها الطبيعى رقة وفتنة ، بدا حلم حياتها على وشك البزوغ مع فجر كل يوم جديد ، أوشك نهار حياتها المشمس أن يطل بوجه مشرق صبوح ..

كانت أحلامها تنحصر فى لقاء كامل ، ولكى يتم هذا اللقاء لابد أن تظهر بالمظهر اللائق به ، أن ترتفع إلى مستواه ، فستان جديد أنيق ، حذاء لامع ، حقيبة تتدلى من كتفها كبنات الذوات ، غشاها حلم يقظة ، انقبض قلبها ، تلعثمت ، إضطربت أوصالها ، أسبلت أجفانها فى حياء ، لم تكن تتوقع المفاجأة فى اللقاء ، تفتش داخل عقلها عن كلمة ، لم تجد فى قاموسها غير كلمات فجة لا تليق به ، فهو متعلم ومتمدين ، ويحوى قاموسها كلمات ساذجة ، غير ذات معنى ، وضيعة المدلول أو فى النطق ..

أفاقت من أحلامها على صوت عزيزة تناديها : إنت جاهزة ..
– جاهزة من بدرى ..

قبضت يدها على النقود داخل جيب جلبابها ، تحويشة العمر، إدخرت مااستطاعت إدخاره ، شاركت فى جمعية مع عزيزة وقبضت ستة جنيهات كاملة ، هاهى فى طريقها لشراء الفستان والحذاء والحقيبة ، رغم غضب أمها ، واتهامها لها بالجنون ..

كان الحب قد إمتلك سماح عقلا وتفكيرا ، روحا ووجدانا ، رغم الفارق ، إعتقدت أن الحب قادر وحده على إذابة أى فوارق ، ماعليها الا أن تهتم بنفسها ، وأن تتجمل بما تملك وجه أبيض مستدير ، عينان عسليتان ، هدبان رفيعان أسودان ، وروح تحس بها بين جنبات صدرها لها أجنحة كثيرة ..

من أجل حبها له إقتربت من عزيزة ، بدأت بتلبية طلباتها من مشتروات ، سواء وجبة الجرجير اليومية لزوجها ، أو بعض ماتطلبه من البقال ، تحمله وتصعد اليها ،

مرة تلو مرة صارتا صديقتين ، تقضيان معا بعض الوقت فى الصباح ، حيث يكون كامل فى عمله ، حاولت أكثر من مرة أن تنتظر موعد عودته ، يداعبها الخيال بلقاء على السلم أثناء صعوده وهبوطها ، لكن أمها دائما أبدا تفوت عليها هذه الفرصة إذ تناديها فتضطر إلى النزول ..

خرجت سماح بصحبة عزيزة ، شاردة اللب ، مشغولة الخاطر ، لم يعد بصدرها متسع لأشواقها الجامحة ، وهيامها الثائر ، لابد أن يفتح أحد لها صدره ، تنظر نحو عزيزة .. هل تخبرها ؟ لكن هل تستطيع الاستمرار فى تحمل هذا العبء ، أحست بمسيس الحاجة الى مشاركة أحد ، إبتسمت ، لمحت عزيزة بسمتها فسألتها : إيه بيضحكك !

- مش عارفة ..

قالت عزيزة بخبث :

- لأ .. فيه حاجة فى قلبك حلوة .. إحكها لى ..

إنفجرت سماح فى الضحك الطفولى البرئ ، كطفلة عثرت أخيرا على لعبتها المفضلة ، صاحت عزيزة غاضبة : أمرك عجيب ..

قالت سماح وهى تحاول حبس الضحكات فى صدرها : أمال لو عرفتى الأعجب ..

- إيه هو الأعجب ..

- سر حياتى .. بس والنبى ماتقوليش لحد خالص ..

- سرك فى بير ..

قالتها عزيزة فى إرتياح ، لم يكن شئ ينقصها ، أو يشغل بالها مثل سماح ، تعيش فى كنف زوج طيب ، قدم لها البيت المريح ، الملابس الأنيقة ، والكماليات الغالية ، يكد ويكدح لتلبية كافة متطلباتها ، عاشرها معاشرة طيبة ، صحيح أنها لم تنجب ، صحيح أنها لم تحبه لقاء مايقدمه لها ، وصحيح أنها أحبت كامل ، واستسلمت معه لنزوات الحب ، تروى شبابها الذى بدأ فى الأفول ، بعد أن تخطت الثلاثين ، تعرف أن حبها - سرها الوحيد - فى أمان ، كامل يحبها مثلماتحبه ، وهو حريص على الكتمان حرصها عليه ، أعطته مفتاحا لباب الشقة يدخل اليها وقتما تسمح الظروف ، بعيدا عن أعين الناس ، خاصة اسرته ...

أخرجتها سماح من نفسها قائلة : تفتكرى هدومى الجديدة ح البسها عشان مين ؟

- وايه عرفني ..
- مش ح تصدقي ..
- لأ .. أصدق.. بس قولي ..

إرتعشت شفتا سماح في غبطة ، تراقصت عيناها وهي تقول : أنا باحب كامل ..

شهقت عزيزة ، لمعت في عينيها الدهشة ، المفاجأة ، نظرت مبحلقة في وجه سماح، وانطلقت عدة أسئلة دفعة واحدة :

- من إمتى ؟ وهوه يعرف ؟ وماقلتيش من زمان ليه ؟ ومخبيه عليه ليه ؟ ..

قالت سماح في إضطراب من الأسئلة المفاجئة : حيلك عليه شويه ، كل دي أسئلة ..

إستطردت عزيزة : وتفتكري هو بيحبك ..

لم تنتظر ردا اذ شردت أفكارها ، إمتلأت رأسها بتخيلات وأوهام ، إمتلأ رأسها بالغضب على سماح ، تمشيان ، كل منهما تضرب في بحرها الهائج المائج كجزيرتين تعومان في بحر ، يوما ستصطدمان ..

تنبهت سماح الى المعروضات في المحلات ، أمسكت بذراع عزيزة ، أشارت بيدها :

- نفسي في فستان زي ده ..

قالت عزيزة في لا مبالاة : ده قماشه غالي قوي ..

أخذت سماح تنظر الى الفتيات في مثل سنها ، تحدق في ملابسهن الأنيقة ، تأخذ بلبها الألوان ، ترى تسريحات الشعر المختلفة ، الحقائب المتنوعة ، الروائح العطرة التي تنبعث منهن ، قالت والحسرة تملأ قلبها : كامل بيشوف بنات زي دول ..

ردت عزيزة بسرعة : وأكتر ، معاه في الشغل أحسن من دول كمان ..

شعرت سماح بالأمل يموت داخلها ، إمتلأت نفسها بالهم والكرب ، عزيزة تغمد خناجرها في الأمل الجريح حتى يزهق روحه :

- دا ياحبيبتي قاعد معاه في المكتب بنات بيشتغلوا زيه ، بيفطروا مع بعض ، يشربوا شاي مع بعض ، ويمكن بيروحوا كمان مع بعض ..
- أمال ما اتجوزش ليه ؟
- يمكن بيحب ، واللي بيحبها ظروفها ماتسمحش بالجواز .. ويمكن ..

قاطعتها سماح ودموعها تترقرق من عينيها : بس .. كفاية ..

أمسكت عزيزة بيد سماح ، جذبتها نحو «فاترينة» عرض : إيه رأيك فى الفستان ده ؟

قالت سماح باكية : مش عايزه حاجة .. عايزة أروح ..

فرحت أم سماح وابنتها تعود ومعها كل نقودها ، ربتت على ظهرها قائلة:

– الحمد لله ، أحسن حاجة ياسماح تشيلى فلوسك لوقت عوزه ، بكره ربنا يبعت لك ابن الحلال ، ساعتها حتعوزى شئ وشويات ..

تركتها سماح ، دخلت إلى الحجرة تنظر حولها فى أسى، تبكى ، تضغط قلبها بيدها :

– بطل دق ، لازم تموت ..

أطلت أمها من النافذة القريبة من كتفيها وهى جالسة : إنت بتكلمى روحك يابت ..

زعقت سماح : أيوه اتجننت عايزه حاجه ..

لم تسلم عزيزة هى الأخرى ، إرتدت خناجرها الى صدرها ، تطلعت إلى زيارته القادمة لها ، لابد أن تعرف مافى قلبه ، ومامدى علاقته بزميلاته فى العمل ؟ وهل تفوقها إحداهن جمالا ؟ أو رونقا ؟ وهل تمنحه إحداهن مايأخذه منها ؟

أمسكت رأسها بيدها ، والصداع يكاد يمزقها ..

(٨)

إنتهى كامل من إعداد حقيبة السفر ، وضع فيها مايلزمه من ملابس ، وأدوات وبعض الكتب، لم تعرف الأسرة وجهة سفره ، قال أنه فى مهمة رسمية كلفه بها العمل ولمدة إسبوعين ..

جلس على الكنبة يستعرض علاقته بعزيزة ، لم تكن البداية فى تلك الليلة فوق السطح ، حين أمسكت بيده فى الظلام والأسرة تطل على الشارع لتشهد المشاجرة ، وانما كانت هناك قبلها مقدمات ، يذكر الآن أول نظرة اليها ، رآها غضة الشباب وفيرة الحيوية ، قدر عمرها يومها بالخامسة والعشرين ، تملك جاذبية ، جسدا

متمردا تتبدى مفاتنه لأول وهلة ، يكبرها زوجها بأكثر من عشرين عاما ، يعمل صباحا ومساء ، يقضى كل يومه خارج البيت ، يتركها وحدها لفتنتها وجمالها وشبابها ..

كان كامل فى العشرين ، سليم البنيان ، قوى الجسد ، بشوش الوجه ، أنيق فى ملبسه وهندامه ، إغتالت فى نفسها فكرة أنها أكبر منه ، ومع حرمانها من الإنجاب بررت لنفسها أن ماداعب خيالها بدافع الأمومة ، تسلل حبه إلى قلبها ، تتلمس خطاه ، تهرع الى الباب ، تفتحه وتطل من فوق ، يرفع رأسه ويحييها ، تتعمد اللقاء على السلم ، تلومه على سهره خارج البيت الى وقت متأخر ، أو إهماله لصحته ، ويجيئ لومها فى رقة وعذوبة ، وحنان متدفق ، تسلك معه سلوك الراعى الأمين ، يمر الوقت بطيئا ، ينتبه لنظراتها ، يرى بريق الحب يطل من الحدقتين ، يرتعش هدباها للتمويه، كان يفر من تلك النظرات ، لكن عزيزة القوام ، الشكل ، الرقبه ، الحنان ، تسللت إلى أحلامه ، قوام ممتلئ ممشوق ، ثغر متفتح كالوردة ، ساقان جميلتان ، يدان رقيقتان ، إنجذب إليها ، أخذ يتقرب منها ، يتلمس شتى الظروف للتحدث معها ، والإنفراد بها ، ودعاها لقضاء الأمسيات مع أسرته ، يلذ له أن يستمع الى صوتها ، ضحكاتها ، يظل يراقبها فى وجودها ، وفى نومه مع الأحلام اللذيذة ..

بدأ كامل غزله معها بالابتسام فى خجل وحياء ، يفتقد الجرأة وبسبب افتقاده لها عاش بلا تجربة كأصدقائه ، يستمع إلى غزواتهم لقلوب الفتيات ، يحسدهم على شجاعتهم ، أراد أن يحطم فى نفسه بعض السلوكيات التى وجد نفسه عليها ، لم يعد يخجل من قول لفظ قبيح ، لايسحب نظراته أمام نظرات أى إمرأة أو فتاة ، واتته الجرأة بدأ يستجيب لعزيزة ، يصافحها كلما التقيا ويستبقى يدها فى يده ، وأحيانا يتحسسها بيده الأخرى ، يلمس عن قرب عواطفها التى تتزايد باستمرار ..

كانت بداية العلاقة الحقيقية بينهما فى تلك الليلة فوق السطح ، حيث واتته الجرأة الكاملة لأن يدلف إلى شقتها فى مساء اليوم التالى ..

ضحك من نفسه يوم خرجت أسرته ، كان جالسا إلى جوار النافذة ، تناهى إلى سمعه طرقات على الباب ، قام إليه وفتحه ، وجدها أمامه ، قالت متسائلة : ماما فين ؟

قال وهو يزدرد لعابه ، ينظر إلى فتحة صدرها فى نهم : خرجت .. تعالى ..
دخلت وقفت خلف الباب ، ثارت خواطره ، إضطربت أوصاله ، جذبها إليه ،

أحاطها بذراعيه ، قبلها فى وجهها قبلات محمومة مرتعشة ، فوق جبهتها ، فوق وجنتيها ، فوق عنقها ، تخلصت منه فى هدوء ، وهرولت صاعدة إلى شقتها ..

إرتمى بجسده الثائر فوق السرير ، يلعق شفتيه بلسانه ، يستعيد اللحظات الماضية ، شملت السعادة كيانه ، ضرب جبهته وتساءل : «كيف حدث ماحدث ؟ وكيف استسلمت ولم تغضب ؟ وهل هى راضية عما حدث ؟ » وتغير حاله ، خاف أن تخبر أسرته بما حدث ، تموت اللذة فى مهدها ، وتفشل تجربته الأولى التى قرر إقتحامها ، أخذ فى الشد والجذب بينه وبين نفسه ، بين رغبته وعدم شرعية هذه الرغبة ، بين تهوره وقيم أسرته التى شب عليها ، لكن حلاوة التجربة على شفتيه جعلته يزداد تلهفا لعناقها ، وشوقا لتقبيلها ، وليحدث مايحدث ..

حين عادت أسرته ، أقبلت عزيزة ، قضت السهرة وهى ترمقه ، تخصه بنظراتها ، تومئ له برأسها ، تغمز له بعينيها ، أحس بها تحتضنه بين ذراعيها ، تقبله ، إمتلأ بالنشوة، وبدأ يبادلها الحب فى شقتها كل مساء ..

قام كامل وأطل من «البلكونة » ، تنحنحت بصوت مسموع ، رفع رأسه ورآها ، أشارت له بيدها ، وفهم إشارتها ، كالمعتاد قال لأبويه : عايزين حاجة .. أنا خارج ..

وقف على السلم بعض الوقت ، نظر إلى باب شقة الطابق الأول وجده مغلقا ، وضع أذنه على باب شقة أسرته ، سمع أبويه يتحدثان عن مهمته وسفره، صعد الدرجات على طرف حذائه ، دس المفتاح فى باب الشقة ، دخل دون أن تشعر ، أثار ضجة خفيفة بالصالة ليلفت انتباهها ، إلتفتت ، رأته ، أغلقت شيش «البلكونة» ودخلت إليه مهرولة ، غاضبة ثائرة ، لائمة، أخذها بين ذراعيه ، حاول تقبيلها أبعدت شفتيها فى دلال ، قال :

– حصل إيه ..؟
– مسافر ليه ؟
– مهمة..
– مش عليه الكلام ده ..
– صدقينى ، مهمة أسبوعين ..
– فين ؟
– لازم تعرفى ؟
– عشان استريح .

أردف وهو يمد يده فى صدرها : دول أسبوعين ياعزيزة ..
والدموع تترقرق من عينيها .. خايفة أحسن تنسانى ..
- أنساك ، أنسى اللى صحت مشاعرى ، ودوقتنى طعم الحب ..
مسح لها دموعها ، ودفعها برفق نحو حجرة النوم ، جلسا على حافة الفراش يتبادلان القبلات ، اللمسات ، تتجول يداه فى عالمها الوحشى الناعم الطرى ، تخلع عنه قميصه ، يلقى بها فوق الفراش .. يدق الباب .. يتوقف لهاث الأنفاس ..
- تفتكرى مين ؟
- ح يكون مين غير أمى ..
قامت على مهل ، ساوت ملابسها ، خرجت وأغلقت الباب وراءها ..
دخلت الأم وهى تقول للصبى الذى أوصلها : بعد ساعة تعالى خدنى ..
مكثت عزيزة مع أمها خمس دقائق ، قدمت لها زجاجة «كوكاكولا» قالت وهى تفتح باب حجرة النوم : اشربى ح اخلص اللى ورايا وآجى لك ..
جلست إلى جواره ، تقبله ، تحتضنه ، تحاول إذابة الجليد الذى احتوى جسده ، همس فى أذنها : مش دلوقتى ..
- وهى شايفة حاجه ..
مدت ساقها دفعت الباب بقدمها فى هدوء ، قالت أمها :
- أخوك كان جاى معايا لكن جات له شغلانة عطلته ..
قالت عزيزة متضايقة: ح يتأخر كتير ..
- ماإنت عارفه شغله ، ح يبقى يفوت عليك وقت تانى ..
تنهدت عزيزة فى إرتياح ، بدأت تداعب كامل ثانية ، لكنه هذه المرة يزداد خوفا ، وبرودة ، تدور فى رأسه أفكار متضاربة ، أماتت الرغبة فى داخله ..همس قائلا :
- ح انزل دلوقتى ، وآجى بعد ساعة ، قومى عشان أخرج ..
وجهت إليه إبهامها : بعد ساعة ..
هز رأسه موافقا ..
قامت عزيزة ، أخذت فى يدها ملاءة السرير ، فتحت الباب قائلة:
- مهما نضفت ألاقى الفرش عليه تراب ..
غادر كامل الشقة ، صعد إلى السطح ، جلس فى الموضع الذى يجلس فيه كلما غادر شقتها ، يحرص ألا يراه أحد يهبط الدرج ، وبعد أن يطمئن إلى خلو السلم ، ينزل إلى الشارع أو يدخل شقة أسرته ، عليه هذه المرة أن ينتظر حتى تغادر أمها

الشقة ، فكر أن يذهب إلى أصدقائه ، يقضى بينهم الساعة ، لكنه خاف أن يعوقه عائق عن العودة ، ويضيع عليه لقاء الوداع ، آلمته نشوة لم تتم ، وقرر البقاء فوق السطح حتى تحين لحظة هذا اللقاء ..

كانت تلك الساعة أثقل الساعات التى مرت به فى حياته ، تتوالى على مخيلته أحداث كثيرة ، يذكر يوم زارها أخوها ، واضطر للاختباء تحت السرير ، يتنفس بحساب ، يضع يده على فمه خشية انبعاث أى صوت ، كأن تخرج سعلة رغما عنه ، أو أن يعطس عطسة تقع على أثرها كارثة ، يوم جاء ابن اختها ، وهو صبى فى العاشرة ، وأخرجهما من غمار النشوة ، واستطاعت أن تصرفه بعد أن أعطته نقودا ليشترى بها مايريد ، وحين عادت كان الدم قد تجمد فى عروقه ، وانصرف فى أثره ، أحس فى جلسته بالنقمة على نفسه ، وانقيادها وراء الرغبة ، إستشعر ضآلته وهو يختبئ تحت السرير ، أو وهو يرتعش وينتفض ، لم يأخذ فى حسبانه أى طارئ يمكن أن يحدث وتنبعث فى أثره الفضيحة ، لكن شيطان الرغبة زين له أن أثر الفضيحة سيحيط بها وحدها يكفى أنها إمرأة ، أما هو فرجل ، ستضطر هى وزوجهاإلى ترك الشقة والانتقال إلى مسكن آخر ، قد يطلقها ، وقد يعفو عنها ، ليس هذا شأنه ، ويدرك أن أسرته لن تتركه وحيدا ، بل ستدافع عنه ، وتصب إتهاماتها عليها ، وقد يؤيدها الرأى العام فى الحى ، ويظهر هو فى صورة «دون جوان المصرى» ، تتهافت عليه النساء ، تحيط به نظراتهن ، وتشير إليه إشارتهن ..

وجد نفسه بين نارين ، رغبته التى تنطفئ لتتأجج فى اليوم التالى وفى نفس الموعد يجد نفسه مسوقا إلى شقتها ، ثم يحس بخمود عاطفته نحوها ، تذكر أنه سيغيب أسبوعين فى معسكر منظمة الشباب ، فهل يعود إليها محترقا بنار الشوق ؟ أم يجد فى هذا الفراق سبيلا للتخلص من هواها المتقد ؟

يرهف أذنيه لأى حركة ، يتسمع لأى صوت ، يعرف تماما تحرق عزيزة إليه ، لابد أنها ستجد وسيلة تدفع بها أمها إلى الإنصراف وبالفعل ، سمع صوت فتح باب الشقة وعزيزة تقول لأمها : أنا ح أوصلك واشترى طلبى ..

أطل كامل ، فرأى وجه عزيزة متطلعا إليه أومأت برأسها ، فهم مرادها ، وما أن انصرفتا هبط الدرج فى هدوء ، فتح باب الشقة ودلف إليها ، جلس فوق الكنبة فى إنتظار عودتها ..

عادت عزيزة مسرعة ، جلست إلى جواره هنيهة ، ثم قامت ، دخلت غرفة النوم للحظات ، ثم وقفت ببابها فى قميص نوم شفاف ، يضفى لونه الأرجوانى على جسدها رونقا ، وبهاء ، يرسل اليه أشعة غير منظورة شدته للقيام ، قالت وهى تحيطه بذراعيها :

- اشتريته مخصوص علشانك ..

قال فى نفسه وهو يحتويها ، وينفث فيها نيرانه المشتعلة « معقول أهجر النعمة دى » ..

كان لقاء الوداع حارا ، تنخفض حرارته لتتأجج من جديد ، بركان يخمد ليثور ، ويثور ليخمد ..

قامت عزيزة ، دلفت إلى المطبخ ، عادت تحمل طبقا عليه بضع تفاحات ، وضعته أمامه : كل تفاح ..

وتركته ، وذهبت تأخذ حمامها ..

رثى كامل لحالها ، أحبته ، وكانت له نعم الحبيبة ، أعطته كل ماتملك ، ولم تأخذ منه شيئا ، ويوم أهداها نصف دستة مناديل إشترت له رابطة عنق أنيقة ، كانت تمده بالنقود حين تشعر بافلاسه ، ولم تطالبه يوما بردها ، برز امام عينيه سؤال كبير :

« هل يغدر بها بعد كل هذا ؟» ..

قام ، تسلل خارجا ، استكشف طريقه ، خرج من البيت إلى الشارع ، لم يذهب إلى أصدقائه رغم الموعد المتفق عليه معهم ، وإنما إتجه إلى شارع الكورنيش لإحساسه بالحاجة إلى إستنشاق الهواء الرطب ، والإنفراد مع النفس ..

(٩)

إعتلت صحة المعلم بدر فجأة ، رقد فى البيت ، علا التراب الكارته ، الحصان داخل البيت يكاد يصيبه الكساح ، يرقد صاحبه وقد ظهرت عليه الشيخوخة مرة واحدة ، لم يعد له الصوت الجهورى الذى يفزع زوجته أو إبنتيه نجوى ونجاة ،

ويخشاه الرجال حين ينطلق من المقهى بأى أمر للزوجة أو البنات ، إمتلأ صدره بالحسرة على نفسه ، هيبته تتضاءل فى البيت ، تظهر بعض الحقائق التى كانت غائبة عنه ، فقد كان يملك مقهى فى شارع رئيسى وهام ، ماأن يتناول قهوته فى مقهى المعلم شفيق ، يأخذ طريقه إلى مقهاه ، يعمل فيه أولاده الثلاثة من زوجته الأولى أزهار ، لكل ولد منهم زوجة وأولاد ، يسكنون فى شقق بالعمارة التى شيدها وتنازل عن ملكيتها لهم ، ينظر إلى أم عبد الله - زوجته الثانية - ويتذكر الأيام الخوالى ، ويتحسر على عدم إهتمام أولاده الكبار به فى مرضه .

كان المعلم بدر قد تخطى الأربعين من عمره ، انضم لفترة الى رواد مقهى المعلم شفيق ، يقضى أغلب سهراته معه ، ومع الأستاذ حسنى ، والمعلم عيد عندما سكن بيت سعاد ، تضمهم جلسة تعاطى الحشيش والأفيون ويتقارعون كئوس الخمر ، كانت أم عبد الله فتاة لقبت بهذا اللقب قبل أن تتزوج لأن أمها كانت تتمنى فى حياتها أن تنجب ولدا ، ولم تنجب سوى سعاد وأم عبدالله كما أطلق عليها يوم مولدها ، صاحبها اللقب حتى كبرت وتزوجت بالمعلم بدر ، لم تنجب هى الأخرى الولد لتعطية إسم عبد الله ، كان يراها تخرج من البيت لتعود إليه ، تنظر إليه ، تغمز له ، تعلقت به وتعلق بها ، ذات ليلة ، وكان الخمر قد لعب برأسه ، قام إليها وهى واقفة أمام باب البيت وقال : تتجوزينى يابت .

قالت فى دلال : ياريت يامعلم ، وأنا أعيش خدامة تحت رجليك ..

فى مساء اليوم التالى ، تم عقد القران والزفاف ، كان يمكن أن يكون هذا الزواج مثار تندر أهل الحى ، أو تشاع الأقاويل حوله ، لكن شخصية المعلم بدر كانت كبيرة ، وهيبته كانت عظيمة ، لم يجد أى من مروجى الأقاويل والشائعات متنفسا حتى بينه وبين نفسه ، أو أهل بيته ، عاش مع أم عبدالله ، أنجبت له فى السنة الأولى نجوى ، وفى الثانية نجاة ، ولو إستمر على معاشرته لها معاشرة الأزواج لكان له ذرية منها بعدد سنوات حياته معها . تمضى أيام المعلم بدر فى الفراش من سيئ إلى أسوأ ، يتقاطر عليه الزوار بالليل والنهار، وقد ساءه فى رقدته ، وأجهز عليه ، همس الناس الذى وصل سمعه بعد عودة سعاد إلى المعلم عيد ، ونقلت إليه أم عبدالله ماحدث فى تلك الليلة ، يوم إختفاء أحمد إبن إختها ، وانتهت مفاوضات الأستاذ حسنى بموافقتها على شرط العودة ..

ففى صباح اليوم التالى ذهبت مع المعلم عيد إلى محاميه ، وحررت تنازلا عن قضية الحراسة ، وتنازلت عن الريع الذى طالبت به ، وبعد خروجهما من عنده طمأنته

على إبنهما أحمد ، عرف أنها أرسلته عند عمة لها بالمنصورة ، واتفقا على الذهاب معا لإحضاره بعد أن يتم المراد ..

كانت مفارضات المعلم شفيق مع عم احمد بائع الكشرى قد أسفرت عن موافقته على الزواج لليلة واحدة لقاء مبلغ من المال ..

وما أن عادا من مكتب المحامى ، ذهبوا إلى مكتب المأذون ، وتم كتابة عقد الزواج بين سعاد وعم احمد ، وشهد على العقد الأستاذ حسنى والمعلم شفيق ، فى تلك الليلة لم يبرح المعلم عيد مكانه الذى اختار الجلوس فيه أمام باب حجرة النوم ، ولم يهدأ له بال إلا بعد أن وصل إلى أذنيه غطيط عم أحمد ، وأطمأن إلى نجاحه فى تهديد الرجل بالقتل اذا ماحاول الإقتراب من سعاد فى ليلته تلك .. لم يكن يهم عم أحمد أن يضاجع أى إمرأة كان قد نحى تماما عن ذهنه فكرة الزواج ، رغم أنه يشتهى كل فتاة ، ويعاكس كل إمرأة تقف أمامه لتشترى منه ، وقد أشيع عنه على لسان بعض النسوة أنه مخنث ، إرتاح لهذه الشائعة ، ولم يفكر فى التصدى لها ، ساعده ذلك على إنطلاق نفسه على سجيتها خاصة مع الفتيات والنساء بالحى ممن اعتدن غزله ، والشراء منه ، لاتصده إحداهن إذا ماغازلها ، أو لمس أى جزء من جسدها فى مداعبة خاطفة ، بل يتضاحكن ويرددن ماقالته له إحداهن ذات يوم : « أنا أخاف منك ، دا إنت زى أختى وأمى » ..

كان عم أحمد سعيدا لقيامه بهذه المهمة لسعاد والمعلم عيد ، فاز بمبلغ كبير من المال يدخل جيبه لأول مرة فى حياته ، سعيد أيضا لإنضمامه كفرد من أفراد الأسرة ترسل سعاد وجبتى الغداء والعشاء إليه فى حجرته التى يعيش فيها تحت السلم ، توقفت عن مطالبته بالأجر ، علاوة على قيام بطة بخدمته ، شعر - لأول مرة - فى حياته بالنعمة التى أسبغت عليه ، فلم يعد يقوم ببيع الكشرى وانما كان يختفى من الحى طيلة النهار ، ويظهر فى المساء ، يجلس فى المقهى مع شلة القمار .. إحتار الناس فى أمره ، وتساءلوا ، وكان رده الذى ينشره فى كل مكان « أنا دلوقتى شغال فى محل كبير فى وسط البلد » وصدقه الناس ..

منذ أن تم طلاق سعاد من عم أحمد ، والمعلم عيد يقيم فى البيت ، تقول سعاد لأختها ولشهود الواقعة : حض الله مابينى وبينه ، الا بعد شهور العدة ..

لكن المعلم بدر أقسم لأم عبد الله ، وهو على فراش المرض :

- أحلق شنبي اللي اتربى معايا إن ماكان بيعاشرها ، دول ناس كفره ، ورجوعهم لبعض باطل ، وحرام ..

تقول أم عبدالله في استسلام : بايدنا ايه نعمله ..

وكانت وصيته الأخيرة : ساعة ما أموت لايمشوا في جنازتي ، ولايقفوا على قبري ..

مات المعلم بدر ، أقبلت سعاد على صراخ أختها ، إستوقفتها نجوى أمام الباب :

- على فين ؟

- أوعى يابت ..

خرجت أعبد الله وقالت : ده موصيني لاتمشوا في جنازته ولا تقفوا على قبره ..

قالت سعاد مغتاظة ، والنسوة المتشحات بالسواد ينظرن إليها :

- في ستين داهية ، كلب ومات .

وانصرفت مسرعة إلى بيتها ..

(١٠)

عادت سعاد إلى حياتها المعتادة مع المعلم عيد ، وازداد عيار الفتنة والإغراء ، وقد غنمت الكثير بعد رجوعه إليها ، يوم سافرا إلى المنصورة لإحضار ابنهما أحمد ، عادت وفي جيبها عقد قطعة أرض اشترياها هناك مناصفة ، دفع المعلم عيد ثمنها بالكامل ، وفي طريق العودة طلب أحمد شراء تليفزيون مثل الذى رآه عند أقارب أمه ، ولبى أبوه الطلب فورا ، وفي الأيام المتعاقبة إشترت لنفسها ولبطة ملابس جديدة كثيرة ، حلى ، غيرت بعض أثاث البيت ، إنحصر كل تفكيرها في تبديد كل مايدخره أولا بأول ، المال هو أجنحته التي يطير بها من زوجاته ، وبه يقتنى زوجات جدد ..

جاءت ، وسنحت لبطة فرصة اللقاء الذى لم يتم مع حبيبها سعيد في بيت أم سعد ، بعد أن أرهقها سعيد بطلب لقائها كل يوم ، وسئمت الرد عليه ..

- إنت شايفنى فاضية ، إحنا كل يوم فى حال ..

يتركها على مضض ، جاء اليوم اللى قال لها فيه : خلاص .. إعتبرى اللى بيننا انتهى ..

كان يعرف مقدما رد الفعل السريع لقوله ، فردت : إخص عليك ياسعيد .. ميعادنا الليلة ..

- خلاص ، أنا فى انتظارك ..

وعقب ضاحكا : مليت ، على رأى أم كلثوم ..

دفعت بطة باب بيت أم سعد المهجور فى هدوء ، فرائصها ترتعد ، بدنها يرتعش ، لعابها يغور فى حلقها ويشعرها بالإختناق تراجعت فى خوف صامت والباب يفتح عن آخره ، هتف سعيد فى صوت خافت : ادخلى ، أنا سعيد .. ادخلى بسرعة ..

دخلت بطة تتحسس الأرض بقدميها خشية التعثر فى ظلمة المكان ، أغلق سعيد الباب فى هدوء ، نقل حجرا ووضعه خلفه ، أمسك بيدها وعبرا الحصير المكشوف ، يتطلع إلى نوافذ البيوت المجاورة خشية أن يراهما أحد ، دلف إلى حجرة يكتنفها الظلام الدامس ، إنتفضت بطة من الخوف ، قفزت فزعة ، إحتضنها سعيد : مالك ؟

- حاجة خبطت فى رجلى ..

- ياحبيبتى ، ماتخافيش ، دى فيران ماتخوفش ..

- البيت مسكون بالعفاريت ياسعيد ..

ضمها إلى صدره وهو يلثم كل وجهها ، تطوف أصابعه بأجزاء جسدها ، أجلسها فوق كومة من القش ، عانقها ، يحاول تجريدها من ملابسها ، تتمنع : لأ ياسعيد ..

ويمضى سعيد إلى غايته ، تتقافز حولهما الفئران ، انغمست بطة فى تيار الحلم متقمصة شخصية أمها ، وتزدى عنها كل تصرفاتها ..

عاد عزوز مثقل الرأس بما تجرع من زجاجات « الكونياك » الصغيرة وقد اختمر فى ذهنه أن يبدأ البحث عن مدخرات أم سعد ، وقف إلى جوار جدار البيت المهجور ، فكر قليلا أن يترك الأمر للأيام القادمة ، ثم فكر فى أنه ربما يسبقه أحد ، أراد أن يدخل بيته ، ليتناول عشاؤه ثم يجلس أمام باب البيت حتى يهجع الناس فى بيوتهم ، لم يفعل شيئا مما فكر فيه حيث وجد نفسه يدفع باب البيت المهجور بكتفه ، ثم بظهره . واستعصى عليه فتح الباب ، وقف برهة يدور حول نفسه مع دوار رأسه ، ثم

رفع عينيه إلى شراعة الباب ، وعلى الفور تعلق بها ، رفع جسده ومرره من خلالها ، ثم هبط بهدوء داخل البيت .

وقف وسط الحضير ، ينظر إلى الحجرتين ، بأيهما يبدأ ، إهتز الصمت حوله ، سمع لفظة « آه» .. هز رأسه فى عنف ، اقترب من مصدر الصوت ، أرهف أذنيه بعد أن تبدد مفعول ماتجرع من « كونياك» .. جاء صوت آخر «باحبك يابت» .. لم يعد هناك أوهام أو خيالات فى رأسه ، لم يعد الهدف من اقتحام البيت شغله الشاغل ، يهمه الآن أن يعرف من بالداخل ، تحسس الباب ، حاول دفعه برفق ، اندفع نحوه بكامل جسده ، بكل قوة فيه ، إنفتح الباب على مصراعيه ، توقف وصرخة نسائية تخرق أذنيه ، تسمرت قدماه بالأرض ، تراءت له الشياطين وتأهب لنزالها ، استل المطواة من جيب جلبابه ، تلقى ضربة عنيفة فوق صدره ، واندفع شئ ما من جواره ، صاح عزوز فى خوف: إنت مين ، إنس واللا جان ..

خيم الصمت بعد تلك اللحظات الرهيبة ، إنكمشت بطة فى الركن كتمت أنفاسها ، تتحسس ماحولها ، تجمع بعض الأحجار فى يدها ، أرعبها صوت عزوز :

- مين جوه ، انطق لأدب المطوة فى كرشك ..

تخيلت بطة الموت قتلا ، ثم الفضيحة علنا ، فرت الدماء الباقية من عروقها ، تسلل الخدر إلى أطرافها ، بودها أن تجد من يحنو عليها ، يحملها وقد هرب سعيد فى جبن ، تركها وحدها لمصيرها ، عاود عزوز تهديده وقد سد بجسده الباب ، قالت بصوت مختنق بالدموع : أنا ياعم عزوز ..

عرف عزوز صوتها فصاح مندهشا .. بطة ، ايه جابك هنا ..

- جيت أستخبى من أمى

تنهد عزوز فى ارتياح ، تحسس صدره وتذكر الدفعة التى تلقاها فقال : مين كان معاك ..

- ماحدش ..

قال فى تهديد : مين يابطة ، دا خبطنى فى صدرى وجرى ..

أخذت تحاوره ، تتوسل إليه ، وتنهنه بالبكاء ، حتى وجدت الفرصة سانحة للهرب ، خرجت من الحجرة ، سقطت وقامت مسرعة ، غادرت البيت ، إندفعت نحو بيتها ، دفعت باب الحجرة الواقعة تحت السلم ، إرتمت فوق الفراش الذى ينام فوقه عم أحمد بائع الكشرى ، تبكى فى صمت ..

غادر عزوز البيت بعد فرار بطة ، طلب من زوجته إحضار الحصيرة ، فرشها فوق الطوار ، جلس وأسند ظهره إلى الجدار ، جلست زوجتـه على طرف الحصيرة قرب الباب ، مصمصت شفتيها وقالت : خير ياعزوز ، رجعت بدرى ..

رد عليها غاضبا : يعنى إيه ، أمشى تانى ..

ضحكت زوجته : وفايق كمان ، دا ايه الهنا إللى أنا فيه ..

- يعنى لا كده عاجب ولا كده عاجب ..

- لأ إزاى دا انت تعجب الباشا ..

- لمى لسانك واعملى شاى ..

- ماعنديش ..

- إتصرفى ..

- أما ترجع زينب ..

وغادرت مكانها إلى داخل البيت ، هتف عزوز : ياأم سماح .. إنت ياوليه ..

خرجت أ م سماح من باب البيت .. عايز إيه ياعزوز ..

- عندك شاى وسكر ..

- عندى ..

- تبقى فرجت .. عايز تلقيمة وحبة سكر ..

- حاضر ..

قال فى نفسه وهو يتطلع نحو بيت سعاد « أكيد البنت دى وراها حاجة » ، إنشغل ذهنه بمتابعة المارة ، يرد تحية من يحييه ، يتطلع إلى آخر الشارع فى انتظار عودة زينب ..

جا ءت أم سماح ، أعطته بعض الشاى والسكر ، نادى زوجته : خدى .. ربنا فرجها ..

إنصرفت زوجته لإعداد الشاى ..

إنبعث الهياج فجأة ، خرج رواد المقهى على اثر خروج حصان المرحوم المعلم بدر من البيت مندفعا ، مر كالبرق أمام عزوز ، نهض عزوز وجرى وراءه وهو يصيح :

- وسع ياجدع إنت وهوه ..

ظل يصيح وهو يجرى ، يلهث ، وجد الحصان نفسه فى زقاق مسدود ، يقترب منه عزوز فى حذر :

- إهدا .. إهدا ..

مد يده وتحسس ظهر الحصان ، إقترب من اللجام ، أمسك به ، سحبه وراءه ، رجع ، وخلفه جمهرة من الأولاد والرجال والنساء ، إقتربت أم عبدالله :

- كتر خيرك ياعزوز ..

- الحصان ده لازم يتباع ياأم عبدالله .. حبسته فى البيت مش كويسة ..

- ياريت حد يشتريه بالكارتة ..

إرتفع صوت أحمد وكان بين الصبية : إحنا نشتريه ياخالتى ..

شردت أم عبدالله للحظة ، تذكرت وصية المرحوم ، قالت فى نفسها «ماوصانيش على الحصان قبل موته» وردت على أحمد : أما تكبر ياحبيبى ، إبقى اشتريه ..

عادت بالحصان إلى البيت ، قال المعلم شفيق لرواد المقهى وهم يعودون إلى أماكنهم :

- الحمد لله ربنا ستر ، لو كنا بالنهار كان شاط كام عيل فى سكته ..

قال عزوز لزوجته :

- لو كان معانا قرشين كنا بعنا الحمار واشتريناه ..

- إحنا قادرين على مصاريف الحمار ..

رد عزوز وهو يشرب الشاى .. على رأيك ..

مرة أخرى عادت فكرة البحث عن مدخرات أم سعد تدور فى ذهنه ، تقافزت الأمنيات فى مخيلته ، يتمنى قبل كل شئ بناء البيت بالطوب الأحمر ، والمسلح ، وزواج ابنته زينب ، والتفكير فى مهنة أخرى ، بيع الزهور لم يعد يدر عليه ربحا مثلما كان من سنوات ، ازدادت عليه مصاريف البيت وكثرت المطالب ..

(١١)

عاد كامل إلى بيت أسرته ، وعمله بعد أسبوعين قضاهما فى معسكر منظمة الشباب، إمتلأ بالدهشة كأنه يرى الحى لأول مرة ، يبدو أمام عينيه كل شئ غريبا

مختلفا ، البيوت إزدادت كثافة سكانها ، الوجوه غير مألوفة لديه ، استمع لأخبار الحى من والديه ، الأحداث التى وقعت فى غيابه ، بدءا من مسرحية إختفاء أحمد التى أتقنت أمه سعاد إخراجها ، وإنتهاء بموت المعلم بدر ، وحكاية حصانه الذى خرج ثائرا ، وهدد المارة ..

أحس والداه بالتغيير الذى طرأ عليه ، خشيا أن يفاتحاه فى الأمر ، يبدو أمامها كمريض يجتاز فترة نقاهة ، لو لم يطلع أباه على المحاضرات التى تلقاها فى المعسكر لظن أنه كان نزيل احد المستشفيات تحت العلاج من مرض ما ، أدركت عزيزة نفس الأحاسيس ، وسألت أمه أكثر من مرة : كامل ماله ، من يوم مارجع وهو متغير ..

– مش عارفه .. أنا خايفة عليه ..

أكثر من مرة حاولت عزيزة الإنفراد به ، حاولت إغراءه ليتسلل إلى شقتها كما كان يفعل ، وفشلت ، لا يمكث فى البيت إلا قليلا ، لتناول الطعام ، أو لتغيير الملابس ، أو للنوم ، عرفت من أمه أنه يتواجد طول الوقت فى المدرسة الإبتدائية لأنه يعمل فى السياســـة ..

أما كامل نفسه فقد أحس أنه انتقل من عالم ضيق إلى عالم أرحب ، وأن عليه أن يقوم بواجبات المواطن الذى يبغى الرفعة والتقدم لبلده ، وأن يبدأ بنفسه ، أسرته ، وجيرانه ، ثم أهل المنطقة التى يعيش فيها ، تعلم كيف يحسن الإصغاء لشكاوى الناس ، والبحث عن حلول لها ، تعلم كيف يقف خطيبا فى الناس ، فيؤمنون بما يردد ، يدفع بهم إلى العمل الجاد ، ضبط السلوكيات ومحاربة الفساد والمفسدين ، كما تعلم أن يسير والناس وراءه على الخطوط التى ترسمها له قيادات العمل السياسى فى دائرة القسم والتى تتلقاها بدورها من قيادات عليا على مستوى الدولة.. تعلم أيضا نكران الذات ، والفناء فى سبيل المجموع ..

كانت إقامته شبه دائمة فى مقر المنظمة ، يستقبل كل يوم وفودا من الشباب الجدد يقوم بترشيحهم لعضوية منظمة الشباب . وقد نجح فى استقطاب بعض الشباب النشط ، القى عليهم محاضراته التى تحض على الوطنية ، والعمل للإرتقاء بمستوى الجماهير ، دعا إلى القيام بحملات توعية ، فى النظافة ، فى الصحة ، فى التعليم ، أقيمت فصول تقوية التلاميذ فى المساء بالمدرسة ، تحددت مواعيد للاجتماعات ، إجتذب عددا من الرجال لهم مكانتهم ، وكلمتهم المسموعة ، وكان الأستاذ حسنى على رأس هذه الجماعة ، تكونت الجماعات ، فى كل شارع ، كل

حارة ، كل زقاق ، كان يجتمع بمسئولى الجماعات لرسم خطوات خطة العمل ، تم بعض الانجاز ، تعداد كامل لسكان الحى ، أحوالهم الإجتماعية ، مهنهم ، إحصاء كامل عن البيوت ، أعمارها ، سكانها ، الدكاكين وأنشطتها ، بدأ العمل المنوط به يسير بانتظام ، ينقل كل مايتم الى قيادته فى القسم مدونا فى محاضر اجتماع ، وتقارير انجاز ..

جاءته يوما سيدة بدينة ، أصيبت ذراعها اليسرى بمرض الشلل ، قدمت نفسها :

- أنا سلوى عزت ، خريجة مدرسة الفنون الطرزية ، تابعت نشاطك وعندى استعداد للعمل فى المجال فيما يختص بالمرأة ..

رحب كامل بها فى سعادة ، فقد شعر بالعجز فى تجنيد أى فتاة لقيادة النشاط النسائى ، عرف أنها سكنت بالحى منذ عام ، يزورها فى البيت بعض بنات الجيران تعلمهن التفصيل والحياكة ، أشغال الأبرة ، والتدبير المنزلى ، شجعه ذلك على الأعلان عن إقامة معرض لهذا النشاط ، كلف سلوى بتجهيز المعروضات ..

تقدم رجل يعمل فى مؤسسة إدخارية ، أسهب كامل فى شرح فوائد الإدخار للأسرة ، وللأبناء ، على الفور بدأ الأستاذ حسنى حملته على أرباب الأسر ، قام الرجل بايداع الأموال التى جمعت بالمؤسسة وجاء بدفاتر الإدخار ، إزداد إرتباط الناس ببعضهم البعض ، قلت النزاعات ، توقفت تماما المشاجرات ، تأهب الناس جميعا للعمل دون أى مقابل فيما يعود عليهم ، وعلى حيهم بالخير ..

كانت المدرسة تعج بالرواد ، صبيه وشباب ورجال ، أصبح أغلب رواد مقهى المعلم شفيق يقضون كل أوقاتهم فى المدرسة ، أحس معه المعلم شفيق بالضيق والغضب ، أخذ يشكو من ضيق ذات اليد ، ووقف الحال الذى تعرضت له مقهاه ..

ذات يوم انضم المعلم شفيق إلى زمرة الرجال ، أبدى استعداده للمشاركة فى أى عمل يكلف به ، فطن كامل إلى ماتعرض له الرجل فى مصدر رزقه ، إقترح أن يكون المقهى مقرا لجماعة الثقافة ، رحب المعلم شفيق ، أبدى استعداده لإعداد رفوف الكتب على حسابه ، وأن يخفض أثمان المشروبات للتلاميذ والطلبة ، كما انضم أيضا المعلم عيد ، وعزوز ، وانضمت سماح الى النشاط النسائى ، كانت خير معين لسلوى فى إجتذاب عدد من البنات والنسوة ، بدأت حملات تنظيم الأسرة ، حملات التوعية بالنظافة ، حملات تجميل الحى وتشجير شارعه الرئيسى ، نجحت حملة الإدخار ، أصبح الحى كخلية نحل كبيرة يجرى العمل داخلها على قدم وساق ..

قضى كامل قرابة العام فى هذا العمل السياسى ، كانت حصيلته الأساسية الصلة الحميمة التى ربطته بكل الناس ، دون تفرقة ، نساء ورجال ، أصبح كرب للأسرة الكبيرة ، تعرض عليه التفاصيل الدقيقة لكل مشكلة ولو كانت بين زوج وزوجته ، إبن وأبوه ، زوجة وحماتها ..

رأى خلال العام مايشيب من هوله الوجدان ، الفقر ينشب مخالبه دون رحمة ، أسرة تضم زوجا وزوجة وثلاثة أو أربعة أطفال ، يعيشون فى حجرة واحدة ، علاوة على إقتناء بعض الطيور الداجنة للإستفادة ببيضها ، وتوفير المال لحاجات ضرورية أخرى ، مثلها العديد من الأسر .. نماذج من الرجال ، أمثال عزوز ، يتركون بناتهم ، أو زوجاتهم للبحث عن مصادر للرزق بينما هم غارقون فى الكسل وتعاطى الخمور والمخدرات ، يقضون كل وقتهم فى النوم أو فى جلسات السوء ، بيوت لاتزيد حجراتها على عشر حجرات يعيش فيها مايزيد على مائة من الأفراد فى أعمار متباينة ، عاش فى جحيم مشاكل الإرث والعداء الذى ينشب بين الأخ وأخيه ، والأم وبنيها ، كان الأستاذ حسنى لما له من جاه وسلطان خير معين فى حل هذه المشاكل ..

كانت الأفكار تتولد فى رأس كامل ، تتولد مع تنفيذها مشاعر الناس الفياضة ، تلتف حوله ، تستجيب لأى مقترحات يعرضها ، تسير كل الأمور فى هواده ، لم يبخل قط بالوقت ، أو الجهد ، أو ما فى إمكانياته من مال ..

إعتبرته جهة العمل الوظيفى متفرغا بناء على الخطاب الذى حمله إليها من مسئول القسم ، يذهب أول كل شهر لإستلام راتبه ، أصبح عمله كله فى الحى ، يستنفذ كل الوقت ، وكل الجهد ..

خلال هذا العام ، إستنفدت عزيزة كل الحيل ، كل مانبت فى رأسها من أفكار ، لم تستطع اللقاء مع كامل ولو لساعة واحدة ، كرهت النشاط الذى يزاوله ، حرضت أبويه بحجة إستنفاذ حياته فى عمل لاطائل من ورائه ، وأوضحت أن الزواج وحده يستطيع أن يعيده إلى حياته العادية ، وبالفعل بدأت أمه تعرض عليه الزواج ، تختار له الفتيات اللاتى يلقن به ، وبمستواه .. يهدئ كامل خاطرها ، ويسوف ، يوهمها بأنه يعد نفسه ، وسيأتى الوقت الذى يعلن فيه إختياره ..

على جانب آخر ، بدأت أحلام سماح تستعيد حيويتها ، وقد أصبحت قريبة منه ، تراه تتحدث إليه ، تحرز تقدما كبيرا فى تعلم أشغال الأبرة ، شاركت فى المعرض

الذى أقيم بالمدرسة للنشاط النسائى ، تزيد النيران المتقدة فى جوانح عزيزة كلما جلست معها ، تقص عليها مايدور داخل المدرسة ..

ذات صباح ، خرجت أم كامل مبكرة لزيارة قريبة لها فى بلدة بعيدة ، تستنفذ منها الرحلة اليوم كله ، وقبل أن تغادر البيت صعدت إلي عزيزة ، طرقت بابها ، وبعد تحية الصباح قالت لعزيزة :

– أما تحسى إن كامل صحى من نومه وح يخرج ، إبقى خدى منه المفتاح ، عشان أخوه لو رجع وهو بره ، أو أبوه رجع من شغله ..

ردت عزيزة منشرحة الصدر ، تطل من ثغرها ابتسامة عريضة :

– حاضر ياأختى .. ومستعدة أقوم بأى حاجة تطلبيها ..

– لأ .. مافيش حاجة ، الأكل جاهز ، وكل حاجة تمام ..

تابعت عزيزة أم كامل من النافذة حتى خرجت إلى الشارع الرئيسى ، أغلقت شقتها ، دلفت إلى شقة كامل ، إنحنت فوق حافة الفراش ، أخذت شفتاها تجولان فوق وجهه تنثر القبلات ، فتح كامل عينيه مندهشا ، هتف : عزيزة ..

– عزيزة ياحبى ..

ولم يستطع النهوض ، أو الفكاك حتى بردت الدماء فى عروقهما ، وخمدت الثورة التى اجتاحتهما ، همست فى دلال : عايز تهرب من عزيزة ياوحش ..

قال بعد لحظات : علاقتنا لازم تنتهى

– لايمكن تنتهى الا بجوازك ، ساعتها ربنا يعلم قد ايه ح يكون عذابى ..

غادر كامل الفراش ، أمرها بالصعود إلى شقتها ، وأردف : لى كلام تانى معاك .

سألته فى لهفة : إمتى استناك ؟

– ح نتقابل بره ، بعيد عن هنا ..

بنفس اللهفة : امتى وفين ؟

– أما أرتب وقتى ح أقولك ..

تركها ودخل الحمام ، وقف تحت الدش يغتسل ، لم يسلم من معاكستها ، تفتح صنبور المياه فى المطبخ فلا تصل المياه الى الدش ،يصيح متضايقا : كفاية بقى ..

ترد عليه ضحكاتها ، اضطرته الى لف جسده بالمنشفة ، خرج وجذبها من ذراعها ، دفع بها الى خارج الشقة ، أغلق الباب ، وأمنه بالترباس ..

استمع الى همساتها عبر الباب : طيب ياكامل ، لك روقه معايا ..
ثم خطواتها وهى تصعد السلم إلى شقتها ، دخل الحمام ليكمل إغتساله ، فى نفسه نقمة ، فى روحه غضب ، وقرار ألا يلقاها مرة أخرى ..

إرتدى ملابسه ، تأهب للخروج، عثر على مفتاح شقتها فى جيبه ، ألقى به فى بالوعة الحمام ، أغلق الشقة وانصرف إلى المدرسة ..

(١٢)

ظل كامل مهموما لعدة أيام ، بعد أن نبه على أمه أن توقظه قبل خروجها ، تعلل بأنه تأخر عن إجتماع هام يوم تركته نائما وخرجت ، إمتثلت أمه للتنبيه ، حاول تحاشى اللقاء مع عزيزة ، يصعد السلم فى هدوء حتى لاتصل إليها دقات خطواته التى تحفظها عن ظهر قلب ، صنع مفتاحا آخر لشقة أسرته حتى لايدق الباب ، ويرد على السائل ويصل أذنيها صوته بالرد ، يتطلع إلى نافذتها حتى يتحاشى أن تراه وتنتظره على السلم ، لكنها كانت تنتظر منه موعدا ، تتحرق شوقا إلى لقائه ، تحس أنها قادرة على إستعادته إلى حظيرة حبها ..

تمضى الأيام لاتراه ، ولايأتيها النوم ، تفقد شهيتها لأى طعام ، رغم ذلك يزداد وزنها ، يتضخم صدرها ، تنتفخ بطنها ، تتعجب أم كامل وتسألها :
- إنت مش طبيعية ياعزيزة ، فيه أيه ؟
تهمس عزيزة منشرحة: الظاهر ربنا ح يرضى عليه ، ويحقق لى أمنيتى ..
إتسعت عينا أم كامل دهشة ، وعزيزة تكمل كلامها : أنا حامل ..
بسطت أم كامل يديها أمامها رفعت عينيها عاليا : سبحان اللـه ، قادر على كل شئ ..
قصت أم كامل قصة زوجة تعرفها ، عاشت مع زوجها أكثر من عشرين عاما دون إنجاب، عندما أراد الله رزقها ، وأصبح عندها أربعة أولاد ..

كانت أم كامل فرحة ، نقلت الخبر إلى زوجها ولديها ، فوجئ كامل مفاجأة لم يتوقعها قط ، إستولى شريط الذكريات على مخيلته ، ولم ير - عكس الجميع - أى

العجائز فى أن تحمل عزيزة ، وتلد طفلا ، لايشك لحظة فى أن الجنين إبنه لحما ودما . تضخمت أمام عينيه بشاعة الجرم ، تمثلت الخطيئة أمامه جسدا حيا يعيش، يأكل . يبكى ، يصرخ ، يكبر ، يجرى ، يلعب ، يدخل المدرسة ، يدخل الجيش ، يتزوج ، ينجب .. ولايدرى أنه وليد لحظة طيش وجنون ، شعر بإحساس يلح عليه ليلتقى بها . تتم على إلقائه مفتاح شقتها فى بالوعة الحمام ، وفى ذات الوقت ، تتهرب عزيزة من لقائه ، تحبط أى مصادفة يصنعها ليتبادل معها كلمة أو كلمتين ، بدأ يهمل عمله السياسى ، يرسل اليه الأستاذ حسنى الرسل ، يلبى مرة ويذهب ، يتهرب مرات . كل مايشغل رأسه لقاء عزيزة، والوقوف على حقيقة هذا الحمل ..

وسط هذه الدوامة ، يصيبه سهم طائش أطلقته سعاد بعد زيارة قامت بها لأمه ، تنتشر شائعة زواجه القادم من بطة ، يثور كامل على أمه :

– أنا أتجوز بطة ، أفهم إتكلمت معاها فى ايه ؟ قلت لها إيه ؟

تقول أمه باكية : والله العظيم ياابنى أنا ماإتكلمت معاها فى حاجة ..

– أمال طلعت الكلام ده إزاى ..

– إنت عارف سعاد ، تعمل من القطة جمل ، أما جات سيرتك فى الكلام ، قلت لها إحنا بندور له على بنت الحلال .. ردت وقالت بطة تحت أمرك ، بس شاوروا ويمين تلاته بالله لأجهزها وأجيبها لغاية هنا ..

– وقلت لها أيه ؟

– قلت كل شئ قسمة ونصيب .. آدى اللى طلع من بقى .. ياريتنى إتخرست وتقدت النطق ..

ضرب كامل كفيه : أنا ناقص ، بطة ، بطة إللى سيرتها على كل لسان ..

– ليه إنت شفت منها حاجة ..

– ولا حاجة ، ولا سمعت حاجة ..

– بالبساطة دى ، دا الناس بتبارك لى ، أقول لهم إيه ..

وضعت الأم يدها على صدرها :

– إسمع يابنى ، إحنا مش قد سعاد ، حل المشكلة بعيد عننا .. الله لايسئ لك ..

وجد كامل نفسه فى فخ نصب بإحكام ، لايتبين فى الأفق أى مخرج منه ، على كاهله هم عزيزة وحملها ، مصيبة سعاد وابنتها ، وتوقفت رأسه عن التفكير ..

تركته أمه ، صعدت إلى شقة عزيزة للإطمئنان عليها ، وعلى جنينها ، جاء أبوه وجده على حالة من الغم والنكد ، سأله عما به ، حكى لـه ماحدث من أمـه ، ومن سعاد ، قال أبـوه :

- وايه يعنى .. إتجوزها ، على الأقل مش ح تتعب فى حياتك ، أمها مبسوطة ، جوز أمها بيكسب ورزق الهبل على المجانين ..

قال كامل فى سخرية : يعنى أتجنن وأتجوزها ..

- ح تعيش ملك ، هيه ح تلاقى زيك فين ..

- وانت توافق ..

- أوافق ونص ، مش بدل ماإنت مضيع وقتك وصحتك فى كلام فارغ ، اللى فى سنك إتجوزوا وخلفوا ، ولادهم قربوا يدخلوا المدارس .

وصل صوت أبوه الى أمه عند عزيزة ، استأذنت وهبطت السلم مهرولة ، نزلت فى أعقابها عزيزة ، إستأذنت بالطرق على الباب ودخلت : جرى إيه ياابو كامل ..

ضحك عاليا وقال : صوتى عالى للدرجة دى ..

قالت أمه : ده طالع للشارع ..

- حاجة تجنن ، وفيها إيه أما يتجوزها ..

ردت عزيزة : انت عايز تخلص منه والسلام ..

- أمال ح يقعد فى وشى لحد أمتى ..

وضحك مردفا : حد طايـل ، عروسـه وفلوس ، وعز أبوك طـول حياته ماعاش فيه ..

ثم دعا عزيزة : اقعدى ياست عزيزة ، اعملى لنا شاى ياأم كامل ..

قامت أم كامل تعد الشاى ، دخل ابوه الى حجرته ليغير ملابسه ، همس كامل فى أذن عزيزة : انت حامل صحيح ..

همست هى الأخرى : ياريت يطلع شبهك ..

قال فى غضب : انت مجنونة ..

وضعت يدها على فمه ..

عاد الى همسه : عايز أشوفك ..

- أما أولد بالسلامة ..

- لأ .. بكره بالكتير .. الساعة اربعة على محطة التوبيس ..

انقطع حبل الهمس وأبوه يعود ، يتخذ مجلسه المعتاد ، تحضر امه الشاى ،

ينصتون جميعا الى حديث ابيه عن الحياة وآلامها ، ووطأتها على الفقراء بالذات ، ويؤكد أن فرصة زواج الشاب الفقير من زوجة غنية افضل الفرص ، طال الحديث يستغرق السهرة ، بينما امتد حبل الذكريات بين كامل وعزيزة ، ليخفق قلباهما، ويرفرفا بالشوق الجارف لموعدهما فى الغد ..

(١٣)

كان لغياب كامل وقع سيئ فى نفس سماح ، بعد أن بذلت الكثير فى سبيل الرقى الى المستوى اللائق به ، يرجع الفضل الى السيدة سلوى مسئولة النشاط النسائى بالحى ، وجدت فى سماح الإستعداد للتعلم فعلمتها الحياكة والتفصيل وشغل الإبرة ، أحست بتطلعها الى الرقى والتمدين ، فهذبت طباعها ، وغيرت فى سلوكياتها مالايليق ، وفرت سماح الوقت ، ولم تبخل السيدة سلوى بالجهد ، حين بدأت تتعلم القراءة والكتابة بدأ كامل يتغيب وبدأ ذهنها ينصرف عن التعلم ، أحست بما بدأ ينتاب معلمتها من غضب ..

بالفعل ، عادت سماح ، إستوطنت الطوار إلى جوار أمها ، غير خاف على أحد من أهل الحى التغيير الشامل الذى اكتسبته ، لم تعد البنت التى تشتم ، أو تسب ، البنت الحافية ، البنت التى تقضى نصف الليل جالسة على الطوار مع صويحباتها ، تتجاذبن الحديث فى أسرار الناس ، بل صارت البنت التى تجذب أنظار الناس ، خاصة الرجال أثناء مرورهم بالشارع ، تقدم لها أحد ابناء الحى طالبا يدها من أمها ، لكنها مازالت أسيرة حبها لكامل ، وبعد أن صوبت عزيزة خناجرها لقتل هذا الحب يوم خرجتا معا ، إلا أن ماحدث بعد ذلك من لقائها به ، وإمكانها التحدث إليه فى كل وقت بالمدرسة ، أعاد الصحوة إلى مشاعرها، وأيقظ الأمل الذى ظل يراودها فى الأحلام ..

أشياء كثيرة مرت عليها لم يكن لها معنى ، بدأت تستعيدها وتفكر فيها ، تحاول الوصول الى استنتاجات لها ، تذكرت يوم أطلت عزيزة من النافذة وطلبت منها جرجيرا وفجلا ، حملته وصعدت إليها ، جلستا معا بعض الوقت ، وحين همت

بالإنصراف أخرجت عزيزة كيس نقودها لتعطيها ثمن الجرجير والفجل ، ومع بروز النقود أطلت صورة كامل من كيس النقود ، أسرعت عزيزة بدسها داخل الكيس ، وفى يوم آخر ، كانت عزيزة تضع فوق رأسها «ايشارب» بنفسجى اللون محلى بورد أبيض صغير ، قالت سماح مبهورة :

- الله .. الإيشارب ده جميل قوى ..

ردت عزيزة على الفور : هدية من حبيبى ..

وأستدركت سريعا : قصدى جوزى ، أصل كلمة حبيبى على لسانى دايما ..

ومرة أخرى رأتها خارجة غاية فى التألق ، والتأنق ، سألتها : على فين ياترى ؟

- عندى ميعاد

وبعد لحظة صمت : مع جوزى ، أصل ح نشترى بوتاجاز ..

- طيب مبروك ..

عادت عزيزة ولم تشتر البوتاجاز إلا قريبا ..

تشابكت تلك الأحداث معا وغيرها الكثير ، لتثير الشكوك فى قلب سماح ، أكدت لنفسها وجود علاقة بينهما ، أنبت نفسها على غفلتها ، ثم أرجعت الأمر كله إلى جهلها ، إبتسمت وهى تحس أنها لم تعد سماح التى يعرفها الجميع منذ مولدها ..

خرج كامل فى الرابعة إلا الثلث، تعلقت عينا سماح به حتى إختفى ، بعده بعشر دقائق خرجت عزيزة أنيقة متألقة ، مشت فى نفس الإتجاه ، لاحظت سماح بشاشة وجهها ، طلاء الروج فوق شفتيها ، وفى لحظة قررت متابعتها ، عند محطة االأتوبيس رأتهما معا ، وقبل أن تندفع لمواجهتهما ، دخل الأتوبيس المحطة ، هرولت وركبته من الباب الخلفى ، أطلت برأسها عاليا ، رأتهما يجلسان جنبا الى جنب فى مقاعد الدرجة الأولى ، بينما هى فى الدرجة الثانية المزدحمة قليلا ، حيث المقاعد ممتلئة وعدد من الركاب وقوفا ، نزلا فى مكان لاتعرفه ، نزلت وراءهما ، مشيا متجاورين ، علقت عزيزة حقيبتها فى كتفها ، وأمسكت ذراعه بيدها ، استمرت فى السير وراءهما ، وجدت نفسها وحيدة فى مكان خلوى ، بعد أن دلفا إلى مكان مارأت مثله من قبل .. حديقة مليئة بالأشجار والزهور ، ظنته أول الأمر « المشتل» الذى يشترى منه عزوز زهوره ، ثم لمحت لمبات مختلفة الألوان تتدلى من الأشجار. كما تتدلى تلك اللمبات على واجهات البيوت فى الأفراح بالحـــى ، ثم رأت كراسى وترابيزات لكنها أجمل من الموجودة فى مقهى المعلم شفيق ، فكرت أن

تدخل وراهما ، لكنها خافت ، نظرت إلى جلبابها ، والشبشب فى قدميها ، نحت عن ذهنها فكرة الدخول ، تلفتت حولها «ماذا تفعل ؟» ، لمحها الجرسون فاقترب من الباب ، تطلعت إلى بدلته البيضاء الجميلة ، ظنته خارجا فأفسحت له الطريق ، لكنه فاجأها بالسؤال : عايزة حاجه ياشاطرة ..

تلجلجت برهة ، وأسعفتها دروس السيدة سلوى فسألته بدورها : هوه إيه ده يابيه ؟

ضحك الرجل ضحكة خفيفة وقال : مش عارفة إيه !! .. دا يابنتى كازينو ..

بدا له أنها لم تفهم من تلاعب شفتيها دون صوت : كازينو يعنى قهوة أفرنجى ..

– آه..

وأعلنت فهمها بهزة من رأسها ..

تركها الرجل وعاد إلى الداخل ، وبعد قليل لمحته يحمل صينية ، رصت فوقها أطباق ، وأكواب ، وأطعمه لم تر مثلها فى حياتها ، تبددت دهشتها وفكرة الرجوع تدور برأسها ، لاتعرف رأسها من قدميها ، تتلفت حولها لا أحد يمشى بالطريق ، لاترى سوى عربات تهرول فى الشارع ، بعضها يقف أمام «الكازينو» ينزل من كل منها رجل وامرأة ، شاب وفتاة ، بهرها جمال الرجال والنساء ، أناقتهم، روعة ملابسهم ، السعادة التى تنطلق من أفواههم ضحكات مجلجلة ، أين هى من هؤلاء ؟ ، كادت تلطم خديها وهى ترى ضرورة الإنسحاب ، وإلا ستصاب بالجنون ، سقطت دموعها فوق صدرها كالطوفان ، مشت مهلهلة النفس والروح فوق الطوار ، أسفلت الشارع كالمرآة تحت ضوء القمر ، الهواء اللطيف يداعب وجهها ، حلت منديل الرأس وتركت شعرها للهواء يلهو به ، تنفست عبير الزهور ، هان عليها كل شئ ، لايهمها أن تصدمها عربة وهى تتأرجح بين الطوار ونهر الشارع ، لايهمها نفسها ، أمها ، كامل حبيبها ، عزيزة صديقتها ، سلوى معلمتها ، الحى بأكمله عبارة عن مكان يأوى اليه اللصوص ، الضائعون ، الفواعلية ، عزوز وأمثاله ، مكان يشبه القبور ، لايهمها العودة أو اللاعودة ، وتمنت الموت بيد القضاء والقدر ، الانتحار كفر بالله كما يقول الشيخ أحمد امام سيدها عباس فى خطبة كل جمعة ..

إقشعر بدنها وصوت رجل يأتى من خلفها : تحبى تروحى فين ؟

كأنه مبعوث أرسله الله ليخرجها من ورطتها..

– أروح بيتنا ، توديني يابيه ربنا يخليك ..

ترك الرجل سيارته ، وقف قبالتها يتفحصها ، دار حولها ، قال :
- مش بطالة .. تحبى تشتغلى ياشاطرة ؟
- إتوكل على الله يابيه الله يسترك وسيبنى فى حالى ..
قال وهو يبتعد بخطواته عنها : الحق عليه ، أنا قلت أخدمك ..
إقتربت من باب العربة : ح تشغلنى إيه يابيه ؟
- فى مصنعى ..
- فين ده يابيه ؟
- فى مصر القديمة ..
- أنا أعرف مصر الجديدة لكن القديمة دى ماأعرفهاش ..
يحملق الرجل فى وجهها ، خافت وتراجعت قليلا :
- دا إنت مش غلبانة بقى ..
ردت على الفور : والله العظيم يابيه أنا غلبانه غلب يكفيك شره ربنا ..
وتأهب للإنطلاق بسيارته : قلت إيه ؟
- موافقة يابيه .. موافقة ..

ركبت من الباب الآخر ، إنطلقت العربة فى سرعة ، وصوت «الراديو» داخلها يرتفع حتى صك أذنيها ، دوامات الحيرة والإرتباك والخوف تسيطر على رأسها ، ألقت برأسها على مسند الظهر ، أغلقت عينيها ، تحاول خلق حلم جميل وسط تلك الدوامات المتصارعة ..

(١٤)

إنتصف الليل ، بدأ المعلم شفيق يجمع الكراسى ، المناضد ، يكنس ، الهدوء يخيم على الحى ، تجلس أم سماح على الطوار تتلفت يمنه ويسره ، قلقة ، مضطربة ، شاحبة الوجه ، تقول حزينة لزوجة عزوز الجالسة على الطوار المقابل :
- سماح إتأخرت قوى ، ياترى راحت فين ؟
- زمانها جايه ..

تضرب أم سماح صدرها بيدها : عمرها ماغابت عن عينى ..

تستوقف بعض المارة من أهل الحى : ماشفتش سماح بنتى ..

يصعقها النفى ، يتمكن منها الخوف ، قالت زوجة عزوز : يمكن عند الست سلوى ..

– سألت ياأختى ، مش هناك ..

إقترب المعلم شفيق وهو يدب فوق الأرض بقبقابه الخشبى الضخم :

– مالك ياأم سماح ؟

– بنتى يامعلم ، خرجت بعد العصر ومارجعتش لحد دلوقتى ..

– ماقالتش رايحة فين ؟

– أبدا ياأخويا ..

تؤنب أم سماح إبنتها الغائبة : حرام عليك ياسماح ، ليه تعملى فيه كده ..

ويرتفع صوتها مولولة : بنتى ، عايزة بنتى ياناس ..

يصحو من نام ، يعرف من لايعرف ، يهرول البعض ، تتباين الظنون ، من يظن أن إبنتهاماتت ، أو سطا لص على مالها ، رأسمالها اللذى تتعيش من عائده ، إزدادت الدهشة حين علموا بالأمر ..

إرتفع صوت سعاد وهى تقترب : فيه إيه ياوليه ؟

– بنتى ياأختى ، بنتى مش لاقياها ..

تتجلى شهامة سعاد فى مثل هذه المواقف ، ويشهد الحى لها بتفوقها على شهامة الرجال ، قالت على الفور للمعلم شفيق :

– ساكت ليه ؟ شوف لنا عربية ، أحسن يكون البنت جرى لها حاجة – لا معاها بطاقة ولا نيلة..

قالت إمرأة : ح تدوروا عليها فين دلوقتى ..

هبت فيها سعاد : إخرسى يامرة ، حد ندبك للكلام ، الساعة بقت واحدة ، لو كانت ولد ماكانش حد خاف ..

لطمت أم سماح خديها : يالهوى ، يامصيبتى ..

إستيقظ كامل على الضوضاء ، وقف فى البلكونة ، فهم الموقف من جملة الأقوال التى يثرثر بها الواقفون فى جماعات صغيرة ، بدأت الجماعات تنفض ، كل يذهب إلى بيته ، استقلت سعاد العربة ودعت المعلم شفيق لمصاحبتها ، حاول الإعتذار ، هبت فيه :

- جرى إيه ياراجل ، إركب ..

رفع قدمه ورأت القبقاب : يعنى أمشى كده ..

- ح يجرى إيه !!

نادت زينب إبنة عزوز : إجرى يابت هات جزمة للمعلم ..

جلس المعلم شفيق فى العربة : خدى يابت ، روحى القبقاب معاك ..

جاءت شافية مع زينب مضطربة ، تحمل حذاء زوجها ، وقفت بجوار العربة :

- خير كفى الله الشر ..

ردت سعاد : ح ندور على البت سماح ..

- طب إستنى لما آجى معاكم ..

- مافيش وقت .. إطلع يا أوسطى ..

عاد كامل إلى فراشه ، وإستغرقه النوم سريعا ..

عادت شافية الى بيتها كاسفة البال ، هائجة الخواطر ، غاضبة على سعاد ، عاود الشك القديم العبث برأسها ، وبعدما إزدادت صداقتها معها ، فهمتها أكثر ، لاتتورع عن بيع أمها أو أبوها لو كانا على قيد الحياة لقاء مصلحة لها ، ولا عن بيع إبنتها لو كان وراء بيعها غنم ، أو مكسب ، وتبيع نفسها لو لم يكن هناك مخرج آخر ..

توالى على مخيلة شافية كل لقاءتهما معا ، لا تكون إلا لأمر يخص سعاد وحدها ، عرفت الكثير من أسرارها ، بدءا من قصة زواجها الأول ، وانتهاء بلهابهما معا إلى العراف ، وعمل عدة تحويطات لإسترجاع عيد مرة أخرى ، تحويطة لحجب الرزق عنه أعدها لها فى زجاجات ، أمرها أن ترشها كل صباح على عتبة الدكان ولمدة إسبوع ، تحويطة أخرى تضعها له فى كوب الشاى تجعل عقله يدور فى فلك التفكير فيها وحدها ، ثالثة تضعها له فى الطعام إذا لم تفلح فى إستعادته لتصيبه بالعجز عن معاشرة أى إمرأة أخرى وتفقده الثقة فى رجولته ..

تخشى شافية الهمس ولو لنفسها عن هذه الأمور ، وتخشى أن يعرف زوجها فلها نفس الأسرار ، وإلا ماكانت إحتفظت بزوجها شفيق حتى الآن ..

الآن تخشى سعاد ، تخشى أن تفقد صداقتها ولن تتورع سعاد عن كشف المستور للمعلم شفيق ، تخشى أن تقوم الحرب بينهما وتكون الهزيمة من نصيبها وحدها ، تعرف من زوجها أن استمرار الحياة بين سعاد وعيد أمر بالغ الإستحالة ،

وأن عودتها إلى عصمته بعد زواج صورى من آخر هدفه فقط إسقاط قضية الحراسة والمطالبة بمليغ الريع ، أكد شفيق لها أنه يعد نفسه للزواج من أخرى بمجرد الإنتهاء من مشاكله مع سعاد .. وحين رأى الدهشة على وجهها ، قال :

- صحيح اللى يعرف إللى حصل يقول إنه إستسلم لقدره ، لكنه تعبان لو كانت حية ، وشيطان لو كانت جن ..

حذرها من أن تقول لسعاد أى شئ مما قال ، سألته شافية :

- واحد فى دماغه إللى بتقوله ، يروح يشترى لها أرض فى المنصورة وتليفزيون ، ويصرف عليها بالهبل .. باللمة حد يصدق إنه يسيبها ..

- ياعبيطة . هو بينيمها لحد مايرتب أموره ، ويضرب ضربته ، الرجل خلاص ، مش طايق يبص فى خلقتها ..

منذ دار هذا الحديث بين شفيق وشافيه ، نبهها من حيث لايدرى ، أن الماضى يعيد نفسه ، لو تركها عيد فما أسهل أن يقع شفيق فى حبائلها ، ويتزوجها ، هرولت إلى العراف فقدم لها تحويطة لإستعمالها عند اللزوم ، تدسها له فى كوب الشاى كل صباح ..

هبت شافية فزعة حين داهمتها تلك الأفكار ، تفتش وتبحث عن التحويطة ، ولم يهدأ لها بال حتى عثرت عليها ، واحتفظت بها فى المطبخ لتكون فى متناول يدها فى الصباح فالوقاية خير من العلاج ..

تسلل ضوء النهار من خلال ظلام الليل الدامس ، بدأت تباشير الصباح تغزو الحى ، وحتى ذلك الوقت لم تكن سعاد ،والمعلم شفيق قد عادا من رحلة البحث عن سماح ..

بدأت العصافير تغرد وتتراقص حول أغصان شجرة المقهى ، صوت الديكه ينطلق من كل مكان ، دعوات أم سماح ترتفع مختنقة بالدموع : يارب سلم ..

فى العاشرة ، ساد الهرج الحى كله ، الرجال يعودون من أعمالهم ، الأولاد يعودون من إمتحاناتهم ، أصوات عالية ، فرقعات طائرات تخترق السماء كالسهام ، تجمعات عند نواصى الأزقة ، أحاديث تدور حول الحرب .. والهجوم الإسرائيلى المباغت ..

كان كامل يتناول إفطاره قبل العاشرة ، وما أن سمع الخبر الموجز الذى بثه

المذياع عن قيام الحرب ، إرتدى ملابسه على عجل ، غادر البيت إلى مقر عمله حيث لديه واجبات محددة تلقاها من القيادة منذ بدء حالة الطوارئ ..

كان كامل يتوقع الحرب ، يتابع يوميا ماتنشره الصحف عن لقاءات قادة الجيش مع الجنود ، عن تحركات القوات إلى خطوط المواجهة ، قام خلال ساعات قبل عشرة أيام بتنفيذ الخطة التى أمليت عليه ، أعد كشوفا بأسماء المتطوعين للدفاع المدنى ، والإطفاء ، تم تجهيز مقر اخر بعيدا عن المدرسة ، دكان فراشة بالحى لوجود تليفون به ، أرسل المتطوعين وتلقوا تدريباتهم وما أن دخل المدرسة ، أرسل على الفور إستدعاءات لكل هؤلاء ، وفى غضون ساعة كانت المدرسة كخلية نحل ، الكل فى حماس ، الكل يتمنى أن يحمل السلاح ويذهب الى الجبهة ، الكل يترقب البيانات العسكرية التى تبث إنتصارات ساحقة ، وإسقاط طائرات العدو كالذباب ..

الجميع فى سعادة وسرور يتبادلون التهانى بعد كل بيان عسكرى تبثه الإذاعة ، مضى النهار كله والناس فى الشوارع والأزقة ، جماعات منثورة كالدر فى حديقة وارفة الظلال ، الإذاعة تبث الأناشيد الحماسية ، الصحف إختفت ، التجمهر مستمر أمام الكشك الوحيد عند ناصية الشارع العمومى فى إنتظار الصحيفة المسائية ..

كان الليل متصلا بالنهار ، لا نوم ، لا طعام ، حركة دائبة ، تعليمات تلقى هنا وهناك ، ملصقات تحث على الكفاح كتبت وعلقت ، عبارات خطها الشباب بالجير على الجدران ، طليت جميع النوافذ باللون الأزرق ، فوانيس السيارات ، صدرت تعليمات تقييد الإضاءة ليلا ، تعليمات عدم التجمهر فى أماكن ظاهرة ..

قضى كامل الليل مع رفاقه فى مكتب الفراشة بجوار التليفون ، يتلقى بين الحين والحين أوامر جديدة ، أو تساؤلات عن أوامر سابقة والحديث لا يكف عن إنتصارات اليوم الأول ، وعن التكهنات ببعض أحداث اليوم الثانى ، الجميع يترقب الصباح ، ليحصل كل واحد على صحيفة يقرأ بعينيه تفاصيل النصر الحاسم ..

(١٥)

صدرت صحف الصباح ، تحمل مانشيتاتها الأخبار بالبنط العريض ، لاأخبار سوى أخبار الحرب ، قل عدد الصفحات إلى النصف ، رفع الباعة الأسعار لتكالب الناس على الشراء ، الأعمال كلها متوقفة ، سبل المواصلات كلها متوقفة ، الشوارع مليئة بالناس ، تضاءلت كل الأمور التى يعانيها الناس فرادى وجماعات أمام الحدث الضخم ، لا تكالب على الأسواق ، ولا زحام أمام المخابز ..

فكر كامل فى الذهاب الى البيت لإراحة جسده المنهك بعض الوقت ، وليأخذ حماما بعد إغفاءة قصيرة تعوضه مشقة نهار يوم مضى ، وليل لم يغمض فيه جفن ، أوكل العمل لرفيق له ، ترك المقر ، وقف أمام المقهى ، سأل عن المعلم شفيق ، قال إبنه اللى عاد من ليبيا مؤخرا حيث كان يعمل هناك : أبويا نايم فى السرير من إمبارح الصبح ..

– سلامته ، بلغه سلامى لو الظروف تسمح كنت زرته ..

– كان الله فى العون ..

سأل كامل قبل أن ينصرف : وايه أخبار سماح ..

– فص ملح وداب .. مسكينة أمها ..

إنصرف كامل الى بيته ، دلف إلى فراشه ، لكن النوم إستعصى عليه ، قام وأخذ حماما ، طلب من الأم كوب شاى ، قالت الأم : مش تاكل لك لقمة الأول ، تلاقيك على لحم بطنك من إمبارح الصبح ..

لم يشأ إزعاجها ، قال : أكلنا سندوتشات فى المكتب ..

– مش باين ، بص فى المرايه شوف وشك أصفر إزاى ..

– المهم نفسى فى كباية شاى ..

قامت لتعد الشاى قائلة : ذنبك على جنبك ..

بدأ كامل فى تناول الشاى ، ينصت إلى المذياع ، أناشيد حماسية ، بيانات عسكرية قليلة .. قليلة عكس الأمس ، بعض نداءات توجه عبر الأثير خمن أنها نوع

من الشفرة فى العرف العسكرى ..

دقات خفيفة على الباب ، فتحت الأم ، دخلت عزيزة ، نظرت إليه ، خبطت صدرها :

- يالهوى .. إنت عيان ..

رد مبتسما : لا عيان ولا حاجة ..

- أمال ليه لونك أصفر زى اللمونه ..

- من السهر ..

عقبت أمه وهى تدعوها للجلوس :

- اقعدى ياعزيزة ، شفت ، مش أنا بس اللى مستغربة شكلك ..

قبل أن يرد على أمه ، ويسأل عن أخبار سماح ، سمع ضجة وضجيجا بالشارع ، هرول إلى البلكونه ، رأى جموع الناس تجرى فى إتجاه واحد ، لمح أحد الرفاق فناداه وسأله :

- فيه إيه ؟

- مش عارف ، بيقولوا مسكوا إتنين إسرائيليين .

- وهما فين ؟

- الناس كانت ح تموتهم ، إحتموا فى حضرة الناظر ، دخلهم المدرسة وقفل عليهم فصل من الفصول ..

إرتدى كامل ملابسه على عجل ، وفى لحظات كان فى المدرسة ، لقيه الناظر غاضبا :

- ياسى كامل ، مشى الناس الهمج من قدام المدرسة ..

سأله كامل ، يدفعه الشوق لرؤية الأسيرين : فين الإسرائيليين الأول ..

- لا إسرائيليين ولا حاجة ، دول من ولادنا ..

قال كامل فى ثورة عارمة : يبقوا خونة ، سابوا الجبهة وجم ، لازم نبلغ عنهم ..

قال الناظر وهو يمنعه من التوجه إلى التليفون : على مهلك ، إفهم الموقف الأول ، وبعدين إتصرف ..

- تسمح لى أدخل لهم ..

- إتفضل ، الأستاذ حسنى معاهم جوه ..

فتح الناظر الفصل ، ثم أغلقه ثانية ووضع المفتاح فى جيبه ، مازال الهرج يسود أمام باب المدرسة ، وقد إعتلى بعض الصبية السور المحيط بها ، بعض

أعضاء المنظمة يضربونهم بالعصى من الداخل .

بعد قليل ، خرج الأستاذ حسنى من الفصل ومعه كامل ، وقفا فى مواجهة الجماهير المحتشدة أمام باب المدرسة ، أشار للناس كى يلزموا الهدوء ، بدأ الأستاذ حسنى كلامه إليهم : ياإخواننا ، دول مش إسرائيليين ، دول من ولادنا فى الجيش .

إرتفع صوت رجل : وايه الى جابهم ..

رد عليه آخر : يبقوا هربانين من الجبهة ..

قال حسنى : لا هربانين ولا حاجة ، دول كانوا بيحرسوا مطار قريب من هنا ، والمطار إنضرب إمبارح ،

جات لهم أوامر النهارده يروحوا بيوتهم .

قال شاب : وصدقت الكلام ده ياأستاذ حسنى ..

- طبعا لازم أصدقه ، أمال يعنى ح ييجوا من الجبهة إزاى ، وايه يجيبهم هنا إلا اذا كانوا جعانين ، ومحتاجين مساعدة عشان كل واحد منهم يرجع لبلده .. أظن دلوقتى كل واحد يروح لحاله ، إحنا فى حالة حرب ومش عايزين تجمهر ..

إنفض الجمع المحتشد أمام المدرسة ، تناثروا فى جماعات بعيدا عنها ، وعيونهم عالقة بالبوابة الحديدية ، شاهدوا الطعام جئ به من بيت الأستاذ حسنى ، قلة الماء ، وبعض الفاكهة ، الأحاديث تدور بين الجماعات ، إنقسام الرأى يفرض نفسه ، البعض يتهم الجنديين بالجبن والفرار من الحرب ، البعض يرثوا لحالتيهما وأسرتيهما والبعض يسخر من التصرفات الهوجاء التى كادت تودى بحياتهما لولا لجوئهما إلى المدرسة ، وتصرف الناظر الحكيم فى حمايتهما ..

بعد قليل جاءت عربة بوليس النجدة ، حملت الجنديين وانطلقت بهما ، خرج الأستاذ حسنى وكامل ، على وجه كل منهما كم من الحزن سود بشرتيهما ، لم يلتفتا إلى أى من الذين حاولوا الحديث معهما ، توجها إلى المقر فى دكان الفراشة ، وقبل أن يجلسا رن جرس التليفون ، رفع كامل السماعة ، تلقى المكالمة ، وبعد أن وضعها قال للأستاذ حسنى ..

- انا ذاهب إلى مقر القيادة ..

- فيه أخبار ..

سأل الأستاذ حسنى ، رد كامل : ح أعرف هناك ..

كان صاحب دكان الفراشة من أصدقاء حسنى ، ولدا فى الحى ، تربيا معا فيه ، تسلم العمل فى الدكان بعد وفاة أبيه ، إنقطع عن الدراسة ليعول الأسرة لزنه أكبر الأبناء الذكور.. كلن يدخن النرجيلة ، إلتفت إلى الأستاذ حسنى وسأل : إيه حكاية العساكر دى ..

- حكاية تحزن والله يامعلم ..

- ليه كفى الله الشر ..

أخذ حسنى يتنهد وهو يحكى ماسمعه منهما ، وإختتم حديثه قائلا :

دى تبقى كارثة لو كان كلامهم صحيح ..

- لاحول ولا قوة إلا بالله ، معنى كده إن اليهود ح يستعمرونا بدال الإنجليز ..

- ربنا يستر يامعلم..

- أحنا لحقنا نشم نفسنا ياعالم ..

قال الأستاذ حسنى مستأذنا : أما أروح أريح شوية ، لو حد سأل عنى أنا فى البيت ..

- بالسلامة ياأخويا ..

ثم قال بصوت منخفض :

- أحسن خلى الهمبكة دى تنفض ، ذنبى إيه أنا أبقى ضيف فى دكانى ، وفاتورة التليفون مين ح يدفعها ، ده حتى الناس بطلت تموت الأيام دى ..

دخل صبى المحل وسأله : مالك يامعلم ، متضايق ليه ؟

ترك لىّ النرجيلة ، هم واقفا : ولا حاجة ياوش النكد ، أنا مروح، الأيام المقطرنة فايدتها النوم ..

وهو على باب الدكان ، بعد أن عبث بجيوبه :

- خد حط القفل فى التليفون ، من النهارده ماحدش يتكلم فيه ..

- ولا الأستاذ كامل

- لا كامل ولا غيره ، إللى يجيله مكالمة يرد عليها ، غير كده لأ ..

ومشى يلقى التحايا على جيرانه في دكاكينهم ، بينما أخذ الصبى يدخن مابقى فى النرجيلة حتى إنطفأت قطع الفحم ، أحس بألم فى حلقه ، قام وحملها إلى المقهى ..

عاد كامل بعد أكثر من ساعة ، أرسل فى طلب بعض معاونيه من الشباب ، ألقى أمرا باستدعاء كل العاملين فى كل الأنشطة لإجتماع هام فى المدرسة فى الساعة السابعة ، على ضوء الشموع ، وقام منصرفا الى بيته ..

تلقى كامل صدمة العمر حين جاء أخوه بصحيفة الصباح ، قرأ أخبار الهزيمة فى الصفحة الأولى ، وجد التناقض الحاد بين الأقوال والأفعال ، أحس بالغضب ، الضعة ، وأنه شارك فى خديعة أهل الحى الذى يعيش فيه ، تذكر إجتماع الأمس ، وماقاله كرجل مسئول عن تنظيم شعبى صدقه الناس ، إلتفوا حوله وآزروه ، كانت التعليمات واضحة وصريحة ، الإعتراف بالهزيمة أمر واقع ، لكن المطلوب هو تهدئة حماس الناس حتى لايحدث الإنفجــار ، ويعمد البعض إلى الإثارة والتخريب فى الداخل ، كان من المقرر أن يعلن عن كارثة ضرب جميع المطارات ومايربض على أرضها من طائرات فى اليوم الرابع من بدء المعركة ، أعد كامل ورفاقه خطة العمل طيلة نهار اليوم الثانى ، حيث تهدف لعودة الناس إلى حياتها الطبيعية ، تذهب إلى أعمالها ، ترى مصالحها ، كما ألقى محاضرة عن طبيعة الحروب ، وعن معارك النصر والهزيمة ، وأن أى جيش مهما كانت قدراته لا يحقق نصرا على الدوام فى أى حرب يخوضها ، أحس بالنجاح حين لمس من الأعضاء فتور الحماس ، والإقتناع وإن كان لم يصرح بالهزيمة التى وقعت ، ولا بالكارثة التى حلت ..

أنحى كامل الصحيفة ، والشعور بالكراهية لنفسه يتضخم ، يحوله فى لحظات من التأييد الأعمى ، إلى الرفض لكل شئ ، من التصديق المطلق إلى الشك ولو باليقين ، من الحب للنظام إلى الكراهية له ، وصم بالسواد اليوم الذى إلتحق فيه بمنظمة الشباب ، ودلف عن طريقها إلى العمل بالسياسة ، ضحى فى سبيلها بكل شئ ، هاهو يكتشف أنه كان يمشى وسط سراب مخادع ، يضلل الناس ويظن أنه على صواب ، بدأت تتكشف له المسميات الحقيقية ..

بدأ يتذكر الأسبوعين اللذين قضاهما فى المعسكر ، يستعرضهما يوما .. يوما وساعة ساعة ، يستيقظ المعسكر كله فى السابعة ، يتركون الخيام إلى الحمامات طابور الصباح فى السابعة والنصف ، تحية العلم . خطبة الصباح ، الافطار فى قاعة الطعام فى الثامنة ثم التواجد بقاعة المحاضرات فى التاسعة ، تنتهى المحاضرة الأولى فى الحادية عشرة ، تبدأ الثانية فى الثانية عشرة وتنتهى فى الثانية ظهرا ،

موعد وجبة الغداء ، بعدها ساعة راحة ، ثم محاضرة ثالثة فى الرابعة ، وجولة حرة داخل المعسكر أو حفل سمر بعد السادسة ، ثم الذهاب إلى الخيام ليبدأ النوم فى التاسعة ..

أول مابهره فى المعسكر الرواد كما أطلق عليهم ، وهم المكلفون بإلقاء المحاضرات ، يذكر منهم الأستاذ صلاح الذى كان يحاضر له ، شاب فى حوالى الثلاثين من عمره ، يحمل فى رأسه كما من المعلومات لو نقلت إلى كتب لتعدى عددها الألف كتاب ، لكل سؤال عنده إجابة مقنعة ، يقدر على إقناع الملحد بأنه مسلم ، والعكس ، له قدرة فائقة على الإيحاء ، لو قال للدارسين : عليكم بقتل آبائكم وأمهاتكم بعد الخروج من المعسكر ، لفعل الدارسون جميعا ما أراد ، ترتسم الدهشة على وجه كامل وهو يتذكر أنه خلال الأسبوعين لم يفكر للحظة فى أسرته ، ولم تمر بخياله صورة سريعة لأى يوم أو ليلة أو لحظة عاشها قبل دخوله المعسكر ، وحين سأل زميله فى خيمة المبيت فى آخر ليلة يبيتانها فى المعسكر :

- إيه إحساسك دلوقتى قبل ماتروح لمراتك وأولادك ؟

نظر إليه زميله ، مندهشا للسؤال : ولا حاجة ..دنا نسيت إنى متجوز وعندى أولاد ..

قال كامل : إيه اللى إتعمل فينا ده ..

قال زميله فى فرحة : كل خير طبعا ، بكره الواحد يبقى عضو قيادى ، يطلع السلالم خطوة خطوة .. مش بعيد تلاقى كتير مننا بقوا أعضاء فى مجلس الشعب .. أو مديرين فى الحكم المحلى ، أو ...

قال كامل مغتاظا وهو يحاول التذكر لمجرد التذكر أول أيامه فى المعسكر ، ولم يفلح .. بس كفاية .: أنا مخى اتمسح خالص .. مش قادر أفتكر حاجة ..

تعجب كامل من نفسه ، كيف إستغرق كل هذا الوقت فى غيبوبته ؟ وكيف تأتى له هذا النوم الطويل ؟ والإستسلام لهذه الأفكار التى ملئت بها رأسه دون أى جهد فى التفكير ، رغم أنه كان بين رفاقه صاحب الرأى الصحيح ، المحلل لأدق التفاصيل لأى مشكلة ، أومناقشة حول موضوع معين ، كيف ماتت مشاعر الحب فى قلبه ؟ وترك عزيزة تطارده ، كيف خمدت رغبته فى لقائها ؟ والتى تتأجج كل يوم حتى ظن يوما ما أنه لن يتركها ولو تفجرت الفضيحة عن علاقته بها ، وتناولته أقاويل الناس ، فى لحظة قرر الإستمرار ، ولو أدى الأمر إلى طلاقها من زوجها والزواج

بهـا ، تذكر لقائه بها قبل أيام ، كانت مستاءة من برود مشاعره ، قالت :
- إنت إتغيرت كتير ، فين حبك ؟ فين إبتسامتك الحلوة ..
قال ردا على تساؤلاتها :كبرت ياعزيزة ..
- كبرت ، أو فيه واحدة تانية فى حياتك ؟
ضحك فى بلادة : أيوه فيه .. السياسة ..
- أنا عارفة طبعا البنات إللى بتقابلهم فى المدرسة ، وعارفة إن أى واحدة فيهم تتمناك ، وأتمنى أختار لك عروستك ..
- بلاش تخاريف ، أنا مش مستعد للجواز ..
- ح تعيش كده ..
- أفتكر كده يبسطك ..
زمت شفتيها للحظة ، ثم قالت : ياريت قبل ماتتجوز تبنى لك شقة فوق السطوح ، على فكرة أعرف واحدة كانت بتموت فيك ..
- فيه أنا .. دى مين العبيطة دى ؟
- أهى واحدة والسلام ، وإنت تعرفها ..
- ماافتكرش .. دنا حتى قرفت من الحتة كلها ، ونفسى أبعد عنها ..
- وتبعد عنى ..
- لازم أبعد عنك فى يوم من الأيام ..
- وإبنك اللى فى بطنى ..
- لو كان إبنى بصحيح كنت حبات أول ما ... ، وبعدين كفاية تتحقق لك امنية حياتك ، والحمد لله إن ربنا ستر علينا لغاية دلوقتى ..
وبعد أن شربا عصير البرتقال المثلج ، سألها : من باب العلم ، أعرف مين إللى بتحبنى دى ..
- سماح ..
رد فى دهشة : سماح ، حب إيه اللى من غير أمل ..
- كان عندها أمل كبير ، ولو بتلاحظ تلاقيها إتغيرت كتير عن الأول
توقف شريط الذكرى ، قام إلى أمه فى حجرتها : ماما .. إيه أخبار سماح ؟
- مارجعتش لحد النهاردة .. وماحدش عارف يستدل لا فى قسم بوليس ، ولا فى مستشفى ، ياعينى أمها ح تموت من الحزن ..
قفل راجعا إلى مجلسه ، أسند رأسه الى مسند الظهر وأغمض عينيه ، سرعان

ماطـواه النوم ..

لكن كيف يهنأ بنوم ، ومازالت النداءات تتوالى عليه لأى أمر كبر أو صغر ، كان يلبى سريعا، ويذهب إلى المدرسة .. رفـع رأسـه هـذه المرة وقال لأمه .. حيـن إتجهـت نحـو البلكونة : قولى مش موجود ..

ردت الأم على المنادى كما طلب منها ، قالت وهى عائدة :

- أحسن كده ، ريح ياإبنى نفسك ، وبص لصحتك ، ده كله كلام فارغ ..

قال وهو يتثاءب : تعبان قوى

قـالت وهى تشـده من ذراعـه : قـوم فى سريرك ، واتغطى ، وأنا ح أقـفل عـليك الباب ..

(١٧)

مرة أخرى يستيقظ كامل على قبلة حانية ، يرى وجه عزيزة يلاصق وجهه ، شفتاها تلامس شفتيه ، أحاط رأسها بيديه وقبلها قبلة طويلة ، خلصت شفتيها وهمست :

- أمك تخش علينا ..

قال هامسا : أمال دخلتى إزاى ؟

- أخوك نسى الباب مفتوح ، زقيت شبشبى جوه الأوده ..

تركتـه وخرجت ، تمنى ألا تخرج ، تمنى أن يقوم ويلحق بهـا ، وأن يلتـقـيـا فى حجـرة نومهـا ، لكن كيف ؟ ..

قام متكاسلا ، وقف يتمطى : صباح الخير ..

رد أبوه فى دهشة : قول مساء الخير ..

ثم سأل : أنا نمت قد أيه ؟

قالت أمه : يومين ..

- يانهار إسود ..

صاح أبوه : إيه .. إتلسعت ليه؟

- وتسيبونى نايم يومين ..

ردت أمه فى غضب : كنا ح نعمل إيه ، كل ماحد يصحيك تقول سيبونى نايم ..

إقترب من المذياع وفتحه ، فتش عن الصحيفة ولم يجدها : وإيه الأخبار ؟

رد أبوه : خسرنا الحرب واللى كان كان .. الريس ح يخطب الليلة ..
- إمتى ؟
- الساعة تسعة ..
نظر إلى ساعته وجدها تشير إلى السابعة ، قال :
- كويس ، ألحق آكل ، وأشرب الشاى وبعدين أنزل ..
قال أبوه : الناس كلها فى بيوتها ، ح تنزل تروح فين ؟
- المدرسة ، أكيد الأستاذ حسنى هناك ، ونسمع الخطاب من راديو المدرسة ..
قامت أمه لإعداد الطعام ، كان أخوه يطل من البلكونة ويدخل .. يطل ويدخل، صاح فيه الأب :
- ماتبطل خيله ، إنزل وريحنا ..
- وجودى مضايقك فى إيه ؟
- رايح جاى .. رايح جاى .. مافيش بنت ح تسيب أبوها فى البيت وتنزل لك ..
قال أخوه فى عناد : طيب ، أنا نازل..

وغادر الشقة ..

غادر كامل البيت الى المدرسة ، إستمع الى خطاب تنحى الرئيس عن الحكم ، هاله مارأى من الكبار والصغار ، كثيرون انفجروا فى البكاء ، شباب فى عمر الزهور يلطمون الوجنات ، بعض النسوة تنطلق صرخاتهن من البيوت المجاورة للمدرسة ، ترك كامل المدرسة ، خرج إلى الشارع العمومى ، الشوارع إكتظت بالناس ، قلما يجد مجموعة تتناقش فى هدوء ، الكل يجرى ، لايدرى إلى أين ؟؟ ..

وتمضى ساعة ، كامل ينضم إلى عدد من أصدقائه ، يتناقشون فى هدوء ، قال كامل : الموقف صعب ، ماكانش يجب أبدا إللى حصل ده ..

قال على : الراجل حاسس بمسئوليته عن الكارثة ..

وقال إبراهيم : حاسس بالعجز عن التفكير ، صحيح ، مين كان يصدق إننا ننهزم فى أول يوم ، بعد ماكنا أكبر قوة ضاربة فى الشرق ..

قال كامل : الحقيقة أكبر من كده بكتير ، الناس فى وادى ، والحكم فى وادى ، والجيش فى أكتر من وادى ، إحنا ياجماعة ننسى إن الجيش ساب مهمته الأساسية ، وشارك فى أعمال مالوش فيها ، إذا كان الكبار فيه مسكوا هيئات ، ولجان ، والصغار كانوا بيتصارعوا عشان يروحوا اليمن ، ويرجعوا بقرشين ..

عقب إبراهيم :كفاية ياجماعة ، أحسن لو بصينـا ورانـا ح تلاقى حاجات كتيـر، ربنـا يفوت الأيـام دى على خير ..

قال على : مـش باين ، لو فكـرت إسرائيـل تخـش البلـد دلوقتى ، ماحدش ح يقول لهم رايحين على فين ؟

بدأت أرتال سيارات النقل تعبر الشارع ، يعتليهـا الناس ، يهتفـون « بالروح بالدم نفديك ياجمال ، لا لا لا تتنحى .. » إستوقف كامل إحداها وسأل السائق :

- على فين ياأسطى ؟

- رايحين قصر القبة ..

توقفت سيارة بوليس ، نزل منها جنديان ، يحمل أحدهما دلوا وفرشاة ، تابعهما كامل وأصدقاؤه ، بينما جاءهم ضابط وقال : لو سمحتم ، ممنوع التجمهر ..

قال كامل وهو يقدم نفسه :

- ياأفندم أنا مسئول عن المنطقة ، ودول أعضاء فى الإتحاد معايا ، ولا فيه تجمهر ولا حاجة .. أمال الناس إللى رايحه قصر القبة دول ح تعملوا فيهم إيه ..

رد الضابط : أكيد ح يرجعوا كلهم ..

وانصرف الضابط يحث الجنديين على الإنتهاء من طمس ماخطه بعض الشباب على جدران البيوت المطلة على الشارع « العقبة قطع رقبة ، ورياك ياجمال ياحبيب بكره نوصل تل أبيب »..

إنصرف كامل ورفاقه إلى المدرسة ، قابله الأستاذ حسنى قائلا :

- فيه تعليمات جديدة بتقول إن فيه تسلل لبعض العربيات الملاكى ، ومطلوب الكشف عنها .. إحتمال يكون فيها جواسيس ، ويعملوا حاجة والبلد هايجة كلها ..

على الفور صحب كامل رفاقه إلى الشارع العمومى ثانية ، نقلوا بعض الأحجار الكبيرة ووضعوها فى نهر الطريق ، بدأ إيقاف العربات والإطلاع على رخصها ، كان أغلبها من الأقاليم ، تحمل الجماهير التى تركت بيوتها ومخادعها وأسرها وجاءت لتقضى ليلها حول قصر القبة مطالبة ببقاء جمال رئيسا للجمهورية .

كانت سلوى عائدة من المستشفى ، موعد الكشف الدورى على ذراعها المشلولة . وما أن دخلت الشارع تجمهر الأطفال والصبية ، كبذور شيطانية نبتت من الأرض . أخذوا يقذفونها بالحجارة ويصيحون :

– المجنونة أهى . المجنونة أهى ..

فوجئت سلوى . أخذت تجرى يمنه ويسره ، تتعثر ، تسقط ، ترى التوحش فى عيونهم . والجنون فى صياحهم ، لم تجد أمامها سوى المقهى تختبئ فيه ، وتلوذ بالرواد لحمايتها . خرج أحد الرواد ونهر الصبية : بس ياولد إنت وهوه ، إمشوا من هنا ..

تهالكت سلوى على أرض المقهى من الخوف والرعب ، كأنها فى حرب ، عيون الأطفال مليئة بالرغبة فى القتل . وقفت سعاد بباب المقهى قائلة :

– جرى إيه يارجالة ، الست دى بتعمل إيه هنا .. إطردوها بره ..

قال المعلم شفيق وهو يتساند على كتف إبنه : يعنى نسلمها لشوية عيال يموتوها ؟

ردت سعاد : إنتم أحرار ، لو العيال كسروا القهوة ماحدش يلومهم ..

خاف المعلم شفيق ، أمر إبنه بدفع سلوى إلى الخارج ، وعاد صراخ الأطفال والصبية : المجنونة أهى ، العبيطة أهى ..

جرت سلوى والأطفال فى أثرها ، يلقون عليها الحجارة ، لاذت بحجرتها ، هب صاحب البيت خوفا من تكسير النوافذ والأبواب وطرد الصبية ، أغرق فلولهم المنتظرة بالماء فانصرفوا ..

جلست سلوى تبكى فى ألم ، نالت الحجارة من جسدها ، الجروح تملأ ساقيها وذراعيها . يترف منها الدم ، دخلت زوجة صاحب البيت تنفيذا لأمر زوجها ، تضمد

لها جروحها بالماء الساخن ، ثم « الميكروكروم » وربطت الشاش حولها :

- ياأختى مالك إنت والناس دول ؟

- أى ناس ، أنا من يوم ماجيت ماحصلش حاجة بينى وبين أى واحدة ..

- أمال النسوان قارشين ملحتك ليه ؟

- أنا عارفة !!

- أقول لك أنا .. بيقولوا إنك السبب فى طفشان سماح ..

خبطت سلوى صدرها : أنا .. أنا السبب .. كدب ، والله العظيم كدب ..

- أنا قلت لك عشان تخلى بالك ، وأحسن حاجة تشوفى لك مطرح غير هنا ..

تركتها وإنصرفت ..

إزدادت سلوى غما وكمدا ، أين تذهب ؟ وأين تجد لها سكنا ؟ تركت بلدتها بعد أن قامت حرب ٥٦ ، تركت بيتها ومنقولاتها ، شارك زوجها وولدها فى المقاومة الشعبية ، استشهد إبنها ، ولحق بها زوجها حيث استقرت باحدى القرى ، مات بعد سنوات قلائل حسرة على ابنه الذى استشهد وهو فى عمر الزهور .

وقفت سعاد أمام أم سماح وقالت : كويس كده .. بكره تمشى من الحتة ..

قالت أم سماح والدموع فى عينيها : قعادها أو مشيها مش حيرجع لى بنتى ..

هبت سعاد مغتاظة : يعنى أنا غلطانة ..

قالت أم سماح فى إستكانة :

- لا ياست سعاد ، إنت مش غلطانة ياحبيبتى .. وكتر ألف خيرك .

تناقلت نساء الحى مافعلته سعاد ، تحدثن عن مكرها ، ودهائها ، لبثن أياما يعدن القصة فى جلساتهن حتى يجدّ حدث آخر ، وهو أمر شائع ومتوقع فى كل لحظة ..

جاءت المشاجرة بين على كشك ونجوى لتمحو من الأذهان قصة سلوى ، وماحدث لها ..إرتفع الصراخ فى بيت أم عبدالله ، هرولت النسوة ، وقفت رواد المقهى أمام بابها يستطلعون الأمر ، كان صوت نجوى عاليا يقتحم الآذان :

أخرج من بيتى ياإبن ...، والله ألم عليك الناس ، إنت تمد إيدك وتضربنى ..

دفعت أم عبدالله بعلى كشك من باب البيت ، خرج إلى المقهى بالفانلة الداخلية ، وبنطلون « البيجاما » جلبه بعض الرجال ، أجلسوه وهو يصيح :

- والله لأربيها بنت ....

قال المعلم شفيق : ياعلى عيب ، دا إنتم إتجوزتم من غير ماحد يحس ، ليه الفضايح .

- أنا غلطان اللى إتجوزت واحدة زى دى ..

قال المعلم شفيق : طلقها وريح نفسك ..

وأخذ يسعل ، غرق وجهه فى العرق ، دنا منه إبنه وقال :

- يابا إنت تعبان .. قوم روح ..

- يعنى أسيب الحريقة دى وأروح ..

وحين لمح نجوى تقف أمام باب البيت ، مشمرة أكمامها ، تمسك بإحدى يديها عصا طويلة ، قام ووضع ذراعه على كتف إبنه وقال : ودينى عند البنت دى ..

وقف أمام نجوى وقال : عيب يابنت الناس العمايل دى ..

- ومش عيب إللى بيعمله هوه ..

قاطعها : عشان خاطر عمك شفيق إقصرى الشر وادخلى ..

ودفعها بيده دفعة خفيفة ..

دفعت نجوى يده بعنف وقالت : ماحدش يمد إيده عليه .. إنت فاهم يامعلم ..

حدجها المعلم شفيق بنظرة غضب ، قال وهو يهم بالإبتعاد عنها :

- أهو عندك إن شالله يارب تقطعيه ، وتاكليه حتت ..

ثم اردف لابنه : وصلنى ياإبنى البيت ..

تتسمع نجوى مايقوله على كشك لمن يجلسون معه : مقشطانى أول بأول ..

- ياأخى إتنيل ، إنت حيلتك حاجه ..

- عايزانى آخد مصروفى منها زى العيال ..

- إنت فاكر نفسك راجل زى الرجاله .. يوم شغال وعشرة بطال ، دنا ياراد باصرف عليك ..

حاولت بعض النسوة تهدئتها ، أشعلت إحداهن رغبتها فى إظهار سبب الخلاف .. أخذت نجوى تقص عليهن بعض أفعاله ، تتطلع إليه ، تخرج له لسانها ، تشتمه ، تلعن أبويه ، ثارت ثائرتها مرة أخرى وهو يتوعدها من مجلسه بوضع يده على ذقنه ، دخلت البيت ، عادت بسرعة وطوحت ببقجة ملابسه فى عرض الشارع ، دخلت البيت وعادت مرة أخرى وطوحت بحذائه ، تفاداه الجالسون من رواد المقهى ، سقط الحذاء تحت أقدام على كشك ..

إرتدى على كشك ملابسه ، حذاؤه ، ترك المقهى وانصرف ، وهى تشتمه بالشتائم مهددة ، متوعدة ..

أعادت المشاجرة الى أذهان النساء تحديها للعرف السائد ، والتقاليد المرعية ، يتذكرن زواجها بعد أسبوع واحد من وفاة الأب ، إشتكت الأم لطوب الأرض من تصرف إبنتها ، دفعت بعض النسوة لكبح جماحها وتأجيل الزواج حتى ينقضى الأربعين على وفاة أبيها ، لكنها أصرت ، أمام إصرارها أصرت أمها هى الأخرى ألا يدخل المأذون إلى البيت ، وبالفعل تم عقد القران فى مكتبه ، بينما رحلت أمها إلى أقربائها فى المنصورة ، وعادت بعد ثلاثة أسابيع لتجد إبنتها ترتدى الملابس الملونة الزاهية ، تصبغ وجهها بألوان الطلاء ، وفى المرة الوحيدة التى إستهجنت فيها منظر إبنتها : عيب يابنتى ، الناس تقول إيه ، هوه أبوك ده ماكانش أبوك ..

- كان أبويا ومات ..

- طيب ، إعملى إللى إنت عايزاه ، بس جوه البيت ..

- جوه وبره ، عاجبك أو مش عاجبك ، أنا حرة ..

وحين تحدثت مع على كشك فى نفس الموضوع قال : بنتك وإنت حره فيها ..

من يومها إعتكفت أم عبد الله ، قطعت علاقتها تماما بإبنتها رغم أنهما تعيشان تحت سقف واحد ، حين قامت المشاجرة ، إفتقدت النسوة أم عبدالله ، قالت نجاة وكانت تشهد العراك : سيبوا أمى فى حالها ..

بعد أيام وقف عسكرى البوليس أمام باب البيت ، نادى : نجوى بدر محمد ..

خرجت إليه مهرولة : خير ياشاويش ..

- إستلمى ورقة طلاقك ..

أمسكت بالورقة ، وجمت ..

- إمضى ياست وخلصينا ..

مدت إصبعها ، لوثه العسكرى بسن القلم «الكوبيا» لطع بصمتها على الأوراق، تركها وانصرف ، وصوتها المبحوح يهتف .. عملها إبن الكلب ، طيب ..

دفعت الباب خلفها بقوة ، وبعض الضحكات الساخرة تجلجل فى المقهى ..

(١٩)

لم يعد غريبا أن يرى أهل الحى تردى أحوال المعلم عيد ، تارة يرونه نائما الليل بطوله على دكة خشبية بالمقهى ، وتارة يرونه مطرودا من البيت ، ومن النافذة تسقط ملابسه فى عرض الطريق ، لم يعد شاذا أن يروه يسوق الكارتة التى إشتراها من أم عبدالله بناء على رغبة إبنه أحمد ذاهبا إلى المذبح أو عائدا منه ، باعها ، واشترى عربة «كارو» كما طلبت منه سعاد ليوفر ثمن نقل الذبائح من المذبح إلى المحل ، إشترت قطعة أرض خصيصا بجوار سيدى عباس ، وأقامت فى الطابق الأول جراجا للعربة «الكارو» والحصان ، أصبح وضعها مثار حسد وغيرة من أهل الحى ، إمتلأت ذراعاها بالحلى ، وبانت آثار النعمة ، إستأجرت خادمتين للعمل فى البيت تقوم ببناء شقتين فوق جراج العربة « الكارو» ، تتطلع إلى زواج إبنتها ، وتحدث النسوة عن ذلك الزواج المرتقب وتقول :

- شقتها موجودة ، وجهازها ح يكون أحسن جهاز دخل الحتة ، وح اعمل لها فرح فشر الناس الأكابر ..

لم يعد شئ يقلق راحتها ، بعد أن تخلصت من عم أحمد بائع الكشرى ، عاش فترة بعد أن تزوجها شكلا لليلة واحدة فى نعيم ، ورفاهية ، توقف عن صناعة الكشرى وبيعه ، أشاع بين الناس أنه يعمل فى محل كبير بوسط المدينة ، وحين

كثرت مطالبه من سعاد ، تضايقت ، وهداها تفكيرها إلى التخلص منه ..

كان عم أحمد جالسا بالمقهى فى الليل كعادته ، يلعب القمار حين دهم رجال البوليس البيت ، حطموا باب حجرته ، فتشوها ، وكان مثار دهشة كل الناس الذين تجمهروا ، وعم أحمد يسأل : فيه إيه ياحضرة الضابط ؟

- مش عارف وحياة أمك !!

وضع الضابط أمامه ميزانا صغيرا ، وبضع لفات مكورة فى حجم قطع اللادن :

- إيه ده ياراجل ؟

- مش عارف ..

ناوله الضابط صفعة على قفاه : حشيش ياروح أمك ..

إرتعب عم أحمد ، أخذ يهذى .. مش بتاعى .. أنا بالعب قمار بس .. إنما حشيش لأ .. والله العظيم ..

وينال صفعة أخرى ، يسوقه أحد العساكر إلى السيارة ، ينتهى أمره إلى السجن المؤبد ..

تصنعت سعاد المفاجأة ، ساعدها على تثبيت الواقعة فى الأذهان معرفة الجميع باختفائه طيلة النهار ، وعودته بالليل ، نسى المعلم شفيق والأستاذ حسنى تماما المعروف الذى قدمه عم أحمد لسعاد ، وكتمانه السر ، وصدقا أنه كان يتاجر فى المخدرات .

تذكر ذات يوم حدث خلاف بينها وبين شافية زوجة المعلم شفيق لم يشهده أحد ، لكنه كان باديا للعيان ، لم تعد سعاد تذهب إليها فى بيتها ، ولم تعد شافية تقف ببابها فى إنتظار نزولها ليخرجا سويا ، لعبت الوساوس فى صدر سعاد ، فأسرارها كلها فى سلة واحدة مع أسرار شافية ، لكن الملامة ستقع عليها وحدها ، والفضيحة ستقضى عليها وحدها ، كلتاهما تدسان السموم التى يقدمها لهما العراف لزوجيهما للإحتفاظ بهما ، كلاهما تخططان وترسمان الخطط لإثارة الضغائن بين أهل الحى ، ولتظلا سيدتا كل المواقف .. مطاردة سلوى وطردها من الحى كان بتدبير منهما ، المشاجرات بين على كشك وتجوى بتدبير منهما وأيضا المشاجرة بين أم سماح وعزوز كانت بسببهما ، إشتركتا معا فى كل شئ ، واختصت سعاد وحدها بواقعة زواجها بمحلل صورى ، وهى نقطة ضعفها الوحيدة .. ضغطت أعصابها ، وكظمت غيظها ، ذهبت إلى شافية لمصالحتها بحجة زيارة المعلم شفيق الذى هده المرض ، واقعده فى البيت ، وأخذتا تتبادلان العتاب :

– ماتزعليش منى ياأختى ، أنا ماأقدرش أستغنى عنك ..
– إنت بدأت بالغلط ..
– ماهو عيب تشكّى فيه .. إيه يعنى أما خدت المعلم معايا ندور على سماح ، تقومى تفتكرى إنى ح أخطفه منك ..
– ومش عيب تقولى لولا العراف كان سابنى من زمان ..
ضحكت سعاد وقالت : ياأختى ماحنا فى الهوا سوا .. وهوه يعنى حرام إن الواحدة تحافظ على جوزها بأى طريقة ..
كان المعلم شفيق مغمضا عينيه ، يعلو شخيره المصطنع ، وهو يستمع إلى الحوار الدائر بين زوجته وسعاد ، تألم غاية الألم ، غضب غاية الغضب ، تحسر على ضعفه ، وهوانه ، تمنى أن يهبه الله بعض القوة ، وأسرها فى نفسه ..
جاء أخوه لزيارته فى المساء ..
– إزاى الحال دلوقتى ..
– ماتتعبش نفسك لا عاد ينفع طب ولا دوا ..
قالت شافيه : بكرة تخف وتقوم بالسلامة ..
رفع المعلم شفيق صوته قليلا : إنت عايزانى أخف ياشافية !
خبطت صدرها بيدها : ياندامتى دا انت راجلى ، وأبو عيالى ..
– ياوليه يامفترية ، أمال سميتينى ليه !
قالت فى غضب : اسم الله على مقام أخوك ، إنت بتخرف تقول إيه ياراجل ..
قال شفيق لأخيه : إسألها كانت بتحط لى إيه فى الأكل والشرب ..
– كلام إيه ده ياشفيق ..
– الكلام إللى سمعته بودانى ، قدامك وقدام ربنا ، الوليه دى متحرمه عليه زى أمى وأختى ..
قالت شافية : كلامى فى محله ، الراجل من تقل العيا بيخرف ..
قام المعلم شفيق نصف قومه ، صاح :
– أنا باخرف ياوليه .. طيب روحى وإنت طالق ، طالق ، طالق ،
سقط على ظهره لاهث الأنفاس وأسلم الروح ..
إنطلق صراخ شافية يعلن النبأ المحزن لأهل الحى ، وأغلقت المقهى أبوابها معلنة الحداد لثلاثة أيام ..

(٢٠)

ظهر سعيد مرة أخرى بعد غياب إمتد لثلاث سنوات ، ولا يعلم بقصة هروبه إلى ليبيا إلا أسرته ، ولم تعلم بطة إلا بعد عودة إبن عمه شفيق إلى العمل بالمقهى حيث كان هو الآخر يعمل بليبيا ، أخبرها بأن سعيد فشل فى إستكمال دراسته ، وهدده أبوه بالطرد من البيت فسافر مع بعض زملائه ، عبروا الحدود من المناطق الجبلية الوعرة، وظلت أسرته تبحث عنه فى السر طويلا دون العثور عليه ، لم يكفوا عن البحث إلا بعد أن أرسل إليهم خطابا عرفوا منه مكانه ، واطمأنوا ..

إطمأنت بطة على مستقبلها ، تتوقع بين يوم وآخر عودة سعيد ، واستكمال مسيرة قصة الحب ، وهى على عهد معه بالزواج بعد أن تحطم مستقبلها بين أطلال جدران بيت أم سعد و تحمد الله أن ماحدث لا يعلم به أحد ، ولم يحدث فى شكلها ، أو مظهرها مايشى بفعلتها ، أو يوحى بخطيئتها ، ترى فى الظروف المحيطة السياج الواقى ، تخاف أمها ، وغضبها وثورتها ، ولم يتقدم أحد للزواج بها ، لاتفيق أمها من الغفوة التى تعيشها ، لاترى إلا نفسها والمعلم عيد ، لم تبد أى إهتمام بالشاب الذى يدخل البيت كل يوم ليقوم بالتدريس لأحمد ، وقابلت غمزات النسوة عنه بلا مبالاة.

التقى عادل بسعاد يوم ذهبت تدفع مصاريف إبنها المدرسية ، أشار اليه أحمد وقال لأمه : الأستاذ عادل أستاذى ..

سألته على الفور : أحمد حاله إيه ؟..

قال عادل ولمعة الحلى فى ذراعيها تسيل لعابه : محتاج شوية عناية فى البيت ..

نظرت إلى أحمد بوجه ثائر : يعنى بليد ..

– ماقلتش كده ، بس محتاج شوية مساعدة ..

واتفقت معه على إعطاء إبنها درسا خصوصيا فى البيت لقاء مبلغ من المال حددته ، من يومها يحضر عادل إلى البيت ، يقضى عدة ساعات ، يأكل ، يتناول المشروبات الساخنة والمثلجة ، يمضى بعد ذلك إلى مأواه فى حجرة بواب المدرسة لتعذر حصوله على سكن ..

تطور الأمر حين عرفت سعاد بمعاناته ، صرفت النظر عن محاولة تزويج بطة من كامل لفشل محاولاتها المتكررة من جانب ، وعدم قيام بطة بدورها فى إستمالته كما كانت تتمنـــى أمها ..

فى غضون العام الأول ، أصبح عادل فردا من أسرة المعلم عيد ، يقيم فى البيت إقامة دائمة ، ويبيت فى المكان الذى خلا بدخول عمم أحمد السجن بالتهمة التى لفقتها له سعاد للتخلص منه ..

إرتاحت بطة لوجود عادل فى البيت ، أخذت من جانبها تعمل على إستمالته على جرعات بطيئة ، تارة تتضاحك معه ، وتارة تبدى بعضا من مفاتن جسدها ، وتارة ثالثة تمنع نفسها عن الظهور أمامه ليوم كامل ، دار فى يقينها أن تتركه على الرف ليحل محل سعيد اذا نفض يده منها ، وإن كانت لا تتوقع أن يحدث هذا من حبيبها ، بعد حب نما وترعرع ، وقبلات تشهد عليها ميضة سيدى عباس ، لقاء أول وأخير التحم فيه جسديهما ، وأشبعت فيه رغباتها فى بيت أم سعد المهجور ، لم تهتز بطة ولم تخف أو تضطرب ، لافرق بين مافعلته مع حبيبها وماتفعله أمها مع زوجها أمامها أو على مسمع منها ، تتذكر أفعال أمها وأقوالها وتقول فى نفسها « أى أم هذه التى تدفعنى إلى عرض نفسى للزواج » ..

تتذكر يوم قالت لها فى صيغة الأمر : عايزاك توقعى كامل فى حبك ..

سألت بطة فى سذاجة : إزاى ياأمى ..

مصمصت سعاد شفتيها وقالت : ماتبقيش بنتى إذا كنت ماتعرفيش إزاى توقعى راجل فى غرامك ..

هزت بطة رأسها :

- برضه مش فاهمة ..

- يابت ياعبيطة ، قابليه ، إمشى وراه ، روحى له البيت متحججة بأى طلب ..إتحركى ..

حاولت تنفيذ كلام أمها فقط لتكف عن ملاحقتها ، وبالفعل ذهبت إلى بيت أسرته ودعته بحجة أن يقرأ لأمها خطابا جاء من المنصورة ، رفض كامل الذهاب فى أول الأمر ، ثم رضخ لرغبة أمه حرصا على علاقات الود مع سعاد ، أو خوفا من جبروتها ..

كان كامل فى تلك الأيام مشغولا بعمله السياسى ، ولا شبهة ، ولا مجال للقيل

والقال فى دخوله إلى بيت سعاد ، فقد دخل كل بيوت الحى أثناء قيامه بعمليات الإحصاء ، ومن بينها بيت سعاد يذكر كيف قابلته بترحاب ، وقدمت له الشراب المثلج ، وأقسمت أن يتناول طعام الغداء ولم يستطع الفكاك ، قضى يومها أكثر من ثلاث ساعات فى ضيافتها تخرج من موضوع إلى آخر ، تربط بينها كلها الأحاديث عن بطة ، وماجهزته لشقة بطة من ملابس وفضيات وأطقم صينى ، أخرجت له من الدولاب قمصان نومها زاهية الألوان وفرش الأرضية ، كأنها تقول « بنتى جاهزة من جميعه » ..

تناول يومها الغداء معهم هى وابنتها والمعلم عيد وأحمد ، ولم يشعره أحد منهم أنه ضيف ، وعاملته بطة على أنه خطيبها ، أو زوجها قدمت له فردة الحمام قائلة :

- دى منى ، إياك تقول شبعت ..
- أنا فعلا شبعت ..
- وحياتى عندك تاكلها ..

عقبت الأم .. ماتكسفش البنت أمال ..

إبتسم المعلم عيد وقال : كل ورم عضمك ، الأكل أحسن من السياسة ..

إنتهت الزيارة ، ولم يتمم كامل عمله الذى جاء من أجله ، دون البيانات من ذاكرته ، وخرج متخما بما لذ وطاب من الطعام ..

جاء كامل بناء على طلب بطة ليقرأ خطابا جاء لأمها ، رغم إقامة عادل وتطلعه للقيام بأية خدمة لكل أفراد الأسرة ، وما أن دخل ، إستأذنت سعاد قائلة :

- معلهش ياأستاذ كامل ، عندى مشوار مهم ، وراجعه حالا ..

وحين هم بالإنصراف ، قالت :

- والله ماإنت خارج ، عايزاك تشوف كراسات الواد أحمد ، وتبقى تقول لى على مستواه .. أنا مش ح أغيب ..

وجد كامل نفسه وحيدا مع بطة ، شمله الإضطراب ، بطة تتنقل بين الحجرات ، إستوقفها متسائلا : أمال فين أحمد ؟

- بعت أشوفه ..

إرتدت أكثر من ثوب ، مشطت شعرها ، طلت شفتاها بالروج البنفسجى ، ومسحت خديها بالبودرة ، ثم قالت وهى تجلس إلى جواره ..

- إيه رأيك ؟ أعجبك كده ..

قهقه كامل بصوت مرتفع يدارى إرتباكه ، يدارى الرغبة الجامحة التى تتولد

داخله : أنا كامل مش سعيد يابطة ..

قطبت جبينها ، بدا الشر في عينيها : سعيد مين ؟

- أنا أعرف كل حاجة عنك وعنه .. وشفتك أكتر من مرة وإنت خارجه معاه ..

إبتسمت إبتسامة صفراء وقالت : آه .. ده كان زمان ، كنت لسه صغيرة ..

- هوه فين أراضيه دلوقتي ؟..

- علمي علمك ..

فكر كامل في إستمالتها للوقوف على حقيقة استدعاء أمها له ، مد ذراعه اليمنى على مسند الكنبة خلف كتفيها :

- بالصراحة ، كنت صغيرة ، ولا لسه بتحبيه ، أنا مستعد أقف معاكم لحد ماتتجوزوا ..

- أهله مش ممكن يوافقوا ..

- يوافقوا مادام بيحبك ، وإنت بتحبيه ..

أمالت رأسها على صدرها تدارى دموعها ، ربت كتفها وهي تقول :

- مش ممكن الا إذا هربنا واتجوزنا من وراهم .

- ليه ؟

- كده .. ماحدش في الحتة كلها يوافق يجوز إبنه مني ، أنا بنت سعاد .. عرفت .. بنت سعاد ..

هز رأسه موافقا : آه .. معاك حق ، وإيه حكاية الجواب ..

- مافيش جواب ولا حاجة .. دي حجة ..

قال وهو يغادر مجلسه : فهمت .. أنا ماشي ، وفهمي أمك إني متفق على الجواز مع واحدة زميلتي في الشغل ..

تركها مسرعا وعاد إلى بيته ، قالت أمه : قريت لها الجواب ..

- أيوه ..

ولم يزد ، داعبته الفكرة التي إخترعها وقالها لبطة ، وياحبذا لو نقلها لتصرف سعاد أنظارها عنه ، وقرر أن يشتري في الغد خاتما يضعه في إصبع يده اليمنى ، وليعرف الجميع أنه إرتبط مع فتاة أخرى ، يدرك جيدا أن الخبر سينتقل من بطة إلى أمها، ومن أمها عبر الأثير إلى كل نساء الحي .

كان ظهور سعيد فى الحى مثار دهشة ، وسبب إضطراب عنيف أصاب بطة ، تراه جالسا بالمقهى ، تحاول لفت نظره ، تقطع الشارع أمام المقهى مرات ومرات ، يراها تسقط عيناها فى عينيه ، ينصرف إلى لعب الطاولة .

كادت تتهور وتناديه ، أو تدخل المقهى وتشد يده : تعالى ، أنا عايزاك .

لكنها خافت أمها أولا فلو علمت لدقت عنقها ، خافت سعيد أن يحرجها ، وأخيرا أرسلت إليه صبيا همس فى أذنه : بطة عايزاك ..

قال للصبى : قول لها طيب ، أما يخلص الدور ..

إنهمك فى التفكير ، يفتش عن مخرج نهائى من ورطته معها ، منذ عاد لايريد أن يراها ، ولا أن يتحدث إليها ، تجاهل محاولاتها ولم تيأس ، وبعد أن إنتهى الدور بهزيمته إستأذن رفاقه ، قام ومشى خارجا من المقهى ، خارجا من الحى ، وبطه تتبع خطواته ، إختفيا عن الأنظار فى الشارع العمومى وعند إحدى النواصى وقف حتى لحقت به قائلة : إخص عليك ياسعيد ، زى ماأكون باشحت مقابلتك ..

- عايزه إيه يابطة ..

قالت فى دهشة وتعجب : عايزه إيه !! .. ماأنت عارف ..

- شيلى الحكاية دى من دماغك ..

خبطت صدرها : وأهون عليك .. أتجوز غيرك إزاى ..

- زى كل البنات ..

بدأت البكاء : يالهوى ، يالهوى ، إنت إياك نسيت عملتك ..

قال متصنعا الغضب : عملتى ، أنا عملت إيه ..

- نسيت ياسعيد بيت أم سعد ، نسيت عزوز أما دخل علينا و .....

- ده كان زمان ..

- ووعدك ليه ، لحسته ..

- أيوه ..

- يابجاحتك ، يافجرك ..

قال مهددا : ماتغلطيش ، تقدرى تتجوزى أى حد ، ومن فضلك ماتبعتيش حد ينده لى تانى .. مفهوم..

تركها وانصرف ، جلست على الطوار تبكى تندب حظها ، بدأ بعض المارة يقفون حولها .. فيه إيه ياشاطرة ..

قامت ، صرفت المارة قائلة : ولا حاجة ، كل واحد يروح لحاله ..

أخذت بطة طريقها الى البيت ، جففت دموعها ، نفضت جلبابها مما علق به ، صعدت على الفور ودخلت الحمام تأخذ حماما ، وتنفرد بنفسها مع أفكارها ..

بضع لحظات ، دق احمد باب الحمام : خلصى عشان تعملى الشاى للأستاذ عادل ..

لم ينتظر ردا وعاد الى الحجرة لتلقى الدرس ..

لمحها عادل خارجة من الحمام ، تلف جسدها فى إحكام بالمنشفة الكبيرة ، رأى كتفيها العاريين كقطعتى مرمر ، تضاريس قوامها مجسدة ، الصدر ، الوسط ، الردفان ، الساقان كقالبين من الشمع يلمعان ، أطل لسانه خارج فمه ، تلفت حواليه، دس يده فى جيبه ، أخرج بعض النقود ، قدمها لأحمد :

– خد ياأحمد ، إشترى لى علبة سجاير ..

قام أحمد وقال : حاضر ياأستاذ ..

ثم أردف : واشرب لك كوباية عصير قصب ..

فرح أحمد ، هرول هابطا إلى الدرج ، قام عادل من فوره ، مشى على أطراف أصابعه ، وقف ينظر إلى بطة شبه عارية من شق الباب ، تميل نحو درج الدولاب ، وتقلب فى الملابس لتختار ماترتديه ، إرتعشت ركبتاه ، كاد يسقط فاستند على الباب ، أخذه الباب ، إلى الداخل وهو يفتح على سعته ، وجد عادل نفسه وجها لوجه مع بطة ، صرخت ، أمسكت بالمنشفة الكبيرة ولفتها حول وسطها فى إضطراب ، وجدت نهديها يتدليان فوق المنشفة ، رفعتها إلى أعلى ، وجدت فخذيها عاريين ، دلت المنشفة لأسفل ، تعرى صدرها ، جلست على الأرض ، ركع عادل على ركبتيه أمامها ، أمسك بذراعيها : أنا باحبك يابطة وحياة أمى بااحبك تتجوزينى ..

قالت فى خوف : طيب سيبنى ألبس وبعدين نتكلم ..

إقترب بوجهه من وجهها : كلمة واحدة ، آه أو لأ ..

– آه .. آه.. سيبنى بقى ..

وأطبقت شفتيه على شفتيها ، تعضها فى نهم ، تعبث يداه بالمنشفة ، تتسلل تحتها ، تلامس جسدها ، هتفت بطة : أمى .. أمى ياعادل ..

قام عادل من فوره ، إتجه نحو باب الحجرة ، وقف وأطل فى بئر السلم ، سمع ارتطام باب الحجرة وصوت دوران المفتاح فى الكالون ، عاد إلى مجلسه أمام كتب أحمد ، يجفف عرقه ، يهدئ من ثائرة رغباته ، يهندم ملابسه ، تترا ءى أمام عينيه اللحظات الماضية ، قام مرة أخرى ، وقف بباب حجرة بطة ، طرق الباب فى هدوء :

- بطه ، أخرجى بقى ..

جاء صوتها من الداخل : أما تعقل ياعادل ..

- أنا عقلت خلاص ، أوعى تقولى لأمك على حاجه ..

سمع صوت أقدام تصعد السلم ، عاد سريعا واتخذ مجلسه ، كأن شيئا لم يكن ..

دخلت سعاد ، حيته وسألت : أمال الواد فين ؟

- بيشترى لى علبة سجاير ..

- وبطه ..

- أيوه ياأمه ..

جاءت بطة فى ثوب نظيف جديد ، تلف شعرها بالمنشفة ، رمقتها أمها ، ثم رمقت عادل الذى غشاه الإضطراب ، قالت ولايبين علي وجهها الغضب والسرور :

- حمام الهنا ياروح أمك ..

نقلت عيناها عليهما ثانية وأردفت : عملت الشاى للأستاذ ..

إستدارت بطة على عقبيها : حالا ..

واندفعت إلى المطبخ ، قامت سعاد ، وقفت أمام « البوفيه » أمسكت علبة سجائر فى يدها وقالت : ماالسجائر هنا ياأستاذ ، لازم يعنى تغرم نفسك ..

أدرك أنها تلف وتدور ، تضيق عليه الخناق ، خشى أن تباغته قائلة :

- الحكاية مش حكاية سجائر ، إنت وزعت الواد ليه ؟ ..

خاف أن تثور فجأة ، خاف أن يفتقد العز الذى عاش فيه منذ دخل البيت ، مأوى ،

طعام ، رفاهية ، لم يتعرض لمحنة من المحن التى عاشها ، لم تلم به أزمة من الأزمات التى أحالت حياته الى جحيم آثر السلامة وقال :

– ممكن أتكلم معاك كلمتين ..

قالت وهى تجلس إلى جواره : إتفضل ياحبيبى .. قول اللى فى نفسك ..

كمن وجد قشة تنجيه من المهالك : نفسى أتجوز بطة ، إيه رأيك ..

صمتت برهة ، ثم قالت : بس إنت على باب الكريم ، أنضف من الصينى بعد غسيله ..

قال عادل فى خشوع ، واستسلام :

– البركة فيك ، إنت أمى وأختى ، وعيلتى كلها ، إعتبرينى زى أحمد ، والله .. لولا إنى إتعرفت عليك ، وفتحت لى بيتك .. أنا كنت بافكر فى الإنتحار ..

قالت سعاد وقد أخذتها الشفقة به ، ودموعه تنهمر من عينيه :

– أعوذ بالله ، وتنتحر ليه ؟

– من العيشة اللى كنت عايشها ، والإسم مدرس ، لا لاقى سكن أعيش فيه ، ولا لاقى حد يخدمنى ، وبينى وبين أهلى ساعتين سفر ، تفتكرى أعيش لمين ؟

ردت سعاد : تعيش لبطة ..

قال وهو يتناول كفيها ، ويشبعهما بالقبلات : يعنى موافقة ..

هزت رأسها ، قام واقفا ، يدور حول نفسه : أنا مش مصدق ..

– لأ صدق ..

دخلت بطة ، وضعت صينية الشاى ، أمسك عادل بيديها :

– أهلا بعروستى .. أهلا أهلا ..

أطلت بطة من النافذة ، لمحت سعيدا يلعب الطاولة ، أطلقت عدة زغاريد من فمها تعلن على الملأ الخبر ..

هبطت سعاد الدرج ، وقفت تتلقى التهانى ..

لم تقتنع سماح بأنها تعيش حقيقة ، فالحقيقة تنضح مرارة كما عرفتها وعاشتها ، ولم تقتنع بأنه حلم ، فالحلم أعجز من أن يصور ماهى فيه ، وماتشعر به ، ترفل فى النعيم منذ تلقت صدمتها أمام الكازينو ، تذكر حالها ، وماراود رأسها من أفكار ، كأن تلقى بنفسها تحت عجلات إحدى السيارات المسرعة على الطريق ، أو تلقى بنفسها فى النهر ليبتلعها ، ولا يترك منها أى أثر أنقذها صاحب السيارة من دمار نفسها ، أخذها لتعمل معه فى مصنعه ، آثرها باهتمامه ، أغدق عليها المال بلا حساب ، إشترى لها من الملابس ماتعجز غزيرة عن اقتنائه ، أصبحت ، وبعد مضى عدة أشهر تنكر نفسها أمام المرآة ..

كانت أول يوم ضعيفة مستسلمة ، تعرف مقدما ماعليها أن تدفعه سدادا لإيوائها ، وتشغيلها ، مرت الأيام تنتظر لحظة السداد ، لكن الأمور تغير مجراها ، يتسلل الخوف تدريجيا من نفسها ويمضى الإستسلام إلى غير رجعة ، تكتسب كل يوم ثقة أكبر فى نفسها عن اليوم السابق ، أحبها كل زملائها وزميلاتها فى المصنع ، أحبها صاحب المصنع نفسه ، يرى فى عفوية تصرفاتها طبيعية إفتقدها من زمن يرى فى أحلامها أحلامه قبل أن يهجر بلدته فى أقاصى الصعيد ، يرى فى خوفها أول مرة خوفه حين نزل العاصمة لايجد مكانا يأويه ، لا لقمة تسد رمقه ، بضع قروش يحتفظ بها للطوارئ ، كأن تطارده الشرطة ، أو لايجد عملا فيعود إلى بلدته ، بدأ يعمل حمالا بسوق الخضر ، وارتقى بعمله ، أخذ يبيع بعض الملابس متجولا بين المقاهى والطرقات ، ثم افتتح دكانا صغيرا ، يزداد كل يوم إصراره على النجاح ، ليعوض الفشل الذى خرج مجللا به من البلدة ، ظل على كفاحه ، وتتسرب الأعوام حتى وجد نفسه فجأة وقد تخطى الخمسين ، يعيش بمفرده يمتلك مصنعا لصناعة ملابس النساء .. ذكرته سماح بكل ماضيه ، فأحبها ، فكر أن يتزوجها ، لكنه خاف ، الأمان غير متوفر ، أصحاب له أضاعهم الزواج ، تنازلوا عن طيب خاطر لزوجاتهم عن ممتلكاتهم وبسبب إشكال عابر ، أو سوء تفاهم ، طردوا من جناتهم ، وعادوا إلى نقطة الصفر ، أحب سماح ، لكنه لايعرف من هى ، وإلى أى أسرة

تنتمى ، ولم يفكر يوما فى سؤالها خشية فقدها ، هداه تفكيره آخر الأمر إلى الزواج منها عرفيا ، ولم يستطع فتح باب الكلام معها ، أوعز إلى إحدى عاملات المصنع أن تثير الموضوع معها ، تستشف رأيها ، إن وافقت على الرحب والسعة ، وإن رفضت يكون قد أنقذ نفسه وثروته فى الوقت المناسب ..

لم تكن المفاوضات سهلة ولا عسيرة ، تطالب سماح بالضمان ، ماذا لو انجبت ؟ مامصير الأبناء ؟ وماذا لو ظهر له ورثة بعد عمر طويل وجردوها من كل شئ ؟ وكيف تواجه أمها وأهل حتتها بأبناء غير شرعيين ، واتفقا آخر الأمر على حل وسط، أن يشترى باسمها قطعة أرض ، يشيد فوقها بيتا ، وأن يحرر لها كمبيالة بعشرين ألفا من الجنيهات ، تسلمها له اذا أطمأن لعشرتها ، وعقد عليها أمام المأذون ، وافق الرجل ، وتم كتابة العقد العرفى أمام الشهود وأصبحت زوجة له بعد إطمئنانها لصحة زواجها منه أمام الله ..

بعد أن تزينت سماح إجتماعيا ، فكرت أن تزور الحى ، ترى أمها ، ويراها الناس ، وفى رأسها تدور فكرة شراء بيت أم سعد المهجور ، وتشييد بيت جديد مكانه ، لتقيم أمها فيه ، لم يخرج كامل عن إطار أى صورة تخيلتها للحى وأهله ، ولم تمر برأسها فكرة لم يكن له منها النصيب الوافر ، رغم أنه لم يأبه بها يوما ، ترجع إليه الفضل فيما تنعم به ، فلولا حبها له ، ومتابعتها لخطواته ماوصلت إلى ماوصلت إليه ، من يأس إلى أمل ، ومن ضياع إلى إستقرار ، ومن فقر إلى ثراء ، ومن تخلف إلى تمدين ..

ظلت طويلا تفكر فى القيام بتلك الزيارة ، تعد نفسها للقاء يسعد بعض الناس ، يطلق ألسنه أناس آخرون بالإساءة ، إستقر رأيها أخيرا على تكليف محامى زوجها بالبحث عن ورثة أم سعد ، وشراء البيت حتي يمكنها إقامة بيت جديد فوق الأرض وتأثيث شقة لأمها ، وشقة لها تقيم فيها إذا غدر بها الزمن ، أو تخلى عنها زوجها .

كانت حياتها تسير فى رتابة لكنها لم تشعر بالملل ، مازالت وبعد مضى أشهر عديدة على حياتها الجديدة تلقى الأشياء بالدهشة تنزل إلى حديقة الفيلا ، تحنو على الورود ، وتتذكر عربة عزوز ، وابنته زينب ، يتراءى لها الحى ، والذين يعيشون فيه يمتلئ صدرها بالشوق ، ويأخذها الحب إلى أمها ، وكامل حبيبها ، تنفض عن نفسها الذكرى وتعود سريعا إلى الداخل ، تمر بالحجرات المتسعة الفسيحة ، ترتب بعض الأشياء ، تتابع الخدم بنظرات المودة والألفة تعاملهم معاملة الجيران ،

إرتاحوا جميعا لها ، حرصوا على طاعتها ولم تبخل عليهم بالمال أو بالملابس أو الهدايا .

لم تفكر يوما كاملا فى زوجها ، يكفيها فقط ساعة تجلسها معه قبل أن يدلفا إلى الفراش ، إنه مشغول دائما ، يخرج صباحا ويعود متأخرا ليلا ، قلما يتناول طعاما فى البيت ، ولم تعرف له عطلة أو راحة ، لم تعرف عنه الا النذر اليسير الذى أفصح هو عنه ، ولم تكن تفكر إطلاقا فى الإقتراب منه أكثر ، ترى فيه أبوة إفتقدتها وهى طفلة ، ولايهمها بعد ذلك من يكون ؟ ..

تركت سماح مقعدها ، ذهبت إلى حجرة المكتب ، أدارت قرص التليفون :

- آلو .. الأستاذ عزيز موجود !!

جاءها الرد : مش موجود ، مين عايزه ياأفندم ؟

- أنا حرم الأستاذ .....

وتوقف الطرف الآخر عن الرد

- آلو .. آلو..

- لامؤاخذة ياهانم ، الأستاذ مع البيه جوزك فى النيابه من الصبح .. قالت فى فزع :

- نيابة .. نيابة إيه ؟ وليه ؟ والنيابة دى فين ؟

قطع الإتصال ، وضعت السماعة ، تهالكت على أقرب مقعد ، تحس وكأن زلزالا عنيفا يأرجح مقعدها ، يهز الجدران ، أغمضت عينيها وأخذت فى البكاء ..

دخلت الخادمة : لا مؤاخذة ياهانم ..

تنبهت سماح . مسحت دموعها فى حركة طفولية بيديها : إيه ؟ فيه إيه ؟

- الأستاذ المحامى فى الصالون ..

قامت سماح مسرعة ، إندفعت نحو الصالون وقفت تنظر إلى المحامى وحده :

- خير ياأستاذ ..

تردد المحامى فى الرد ، ينظر إليها ، ويبتعد بنظراته عنها : خير ياأستاذ ..

قال المحامى : أنا آسف لإزعاجك .. لكنى مضطر ..

– قول ياأستاذ حصل إيه ؟

– البيه جوزك واقع فى قضية ..

– عمل إيه ؟

– هتك عرض بنت قاصر من بنات المصنع ..

– ياتهار إسود ..

– أنا آسف ياهانم ، إنت اللى ..

قالت وهى تجلس متهالكة : فى سنه ده ، ومركزه ، وأنا .. مش كفاية ..

– وزة شيطان ياهانم ..

قالت فى غضب وثورة : دى مش وزة شيطان ، دى دناوة ، دى .. دى طفاسة .. يستاهل إللى يجرى له ..

تطلعت نحوه بعينين دامعتين :

– والعمل دلوقتى إيه ..

– خير إن شاء الله ياهانم .. خير ..

– وهوه الشر بيجى بعده خير ..

حدجها المحامى بنظرة إكبار ، ثم مصمص شفتيه قائلا :

– إنت تعرفى البيه من زمان !

– لأ .. ليه !

– لأ .. ولا حاجة ..تسمحى لى أستأذن..

– إتفضل ..

قامت فى وداعه ، وقرب الباب قال : خلى بالك من نفسك ..

على الفور جرت إلى حجرة نومها بعدما دوت كالصراخ فى أذنيها كلمات المحامى الأخيرة .

فتحت دولاب الملابس ، تفتش تحت ملابسها عن عقد الزواج ، رفعت الملابس

المرصوصة ألقت بها كيفما اتفق ، على السرير ، على الأرض ، تفتش فى إضطراب . تهتف فى ألم : يانهار أسود ، العقد راح فين ؟..

تهالكت على الأرض تلطم خديها ، تبكى : يبقى سرقه .. ضيعنى إبن الكلب ، ضيع حياتى ..

قامت فى ثورة ، رفعت أرفف الدولاب ، أخذت فى تحطيمها ، أطاحت بكل أدوات الزينة ، روج وروائح ، سقطت على الأرض ، تحطمت الزجاجات ، إمتلأ هواء الحجرة بعطر عبق ، بدأت فى تمزيق الملابس مختلفة الألوان ، والأشكال ، جلست وسط كومة الحطام تبكى فى مرارة ..

(٢٣)

دخل كامل مرحلة جديدة من حياته ، بدأ يتخلص من أدران الماضى ، ترك العمل السياسى تماما ، وعاد سيرته الأولى ، إنتظم فى عمله ، يقضى معظم الأمسيات مع رفاقه ، قص عليهم تجربته مع عزيزة ، وتجربته فى العمل السياسى ، نسى تماما وجوه من عرفهم وعرفوه ، لايعر أحد إهتماما عدا الأستاذ حسنى الذى يكن له إحتراما كبقية أهل الحى ..

بدأ يفكر تفكيرا جديا فى الزواج ، لكن العقبات صدته ، فهو فى حاجة إلى المال ، كما أنه فى حاجة إلى البحث عن شقة لأخيه الأصغر بعد أن عقد قرانه على إبنة الساكنة فى الدور الأول ، يشعر بالمعاناة ، مرتبه من الوظيفة لايكاد يكفى مصروفاته الشخصية ، ولم يوفق فى إختيار الفتاة التى تغوص به إلى لب هذه العقبات ..

إستعرضت أمه كل الأقارب والمعارف ، ولم ترق له واحده من بناتهم ، إستعرض الفتيات اللاتى رآهن ، وتعامل معهن أثناء عمله السياسى ، أغلبهن صغيرات ، مازلن فى التعليم ، تذكر سماح وتمنى أن يقف على مصيرها ، تمنى أن تلقاه مصادفة فى أى طريق وإن كان على يقين بأنها تغيرت ، وربما غيرت إسمها أيضا ،

تتراءى له فتاة عابثة ، تبيع جسدها ، أو راقصة فى ملهى ، أو خادمة فى شقة مفروشة من الشقق التى بدأت تنتشر كالسرطان فى بعض الأحياء الراقية ، تذكر بداية إلتحاقه بالعمل ، كانت مأمورية صغيرة تتبع إحدى المصالح الحكومية ، تستأجر شقة واسعة فى أحد تلك الأحياء ، أمامها مباشرة عمارة أغلب شققها تؤجر مفروشة للسائحين من البلاد العربية ، أغلبهم من الطلاب الذين يدرسون فى الجامعات ، تضم كل شقة العديد من فتيات الليل ، اللاتى هربن من أهاليهن ، أو إندفعن وراء البحث عن المال ، أو ضاقت بهن سبل الحياة ، كان يقف فى الشرفة ، يستمتع بالنظر إليهن ، يتمنى أن يلتقى بإحداهن ، فهن فاتنات الجمال ، لايفترقن بأى حال من الأحوال عن بنات العائلات الكريمة ، بل أن بعض زملائه عرفوا أسماءهن ، وكثيرا ماصادف عربة بوليس الآداب وهى تحملهن إلى قسم الشرطة ، ويجدهن فى اليوم التالى قد عدن ، كأن شيئا لم يحدث ..

أيقن كامل أن سماح وقعت فى نفس المصير ، أحس للحظة أنه قد يكون الجانى عليها ، خاصة بعد ما أخبرته عزيزة بأنها كانت تحبه ويعرف تماما أن الفشل فى الحب يؤدى إلى نفس الطريق ، خاصة مع سماح وأمثالها ، ممن تفتقدن الخبرة بالحياة ، والخبرة بما يعتمل فى نفوس الرجال ..

يتعجب فى نفس الوقت مما يحدث فى الحى ، يراه بعينيه ، أو يصل لأذنيه ، لم يعد الحب بين الفتى والفتاة مجلبة للعار ..

لم يعد حياء البنت وعفتها دليل صلاح وتربية ، بل وصمة جهل ، وعقد وتقاليد بالية ، لم يعد عشق المرأة لغير زوجها جريمة لايمحوها إلا الدم ، بل لم تعد النساء تراعى الحشمة فى لباسها ، وزينتها ، تمتلئ الشرفات فى أمسيات الصيف بهن مرتديات قمصان النوم كأنهن يتباهين بالعرى ، ويتفاخرن بالحرية التى حصلن عليها بعد أزمان من الكبت والحرمان ، وفى ذات الوقت بدأت موجات إرتحال أصحاب الحرف إلى أسواق عمل أكثر إدرارا للمال والمقتنيات الحديثة وعرف الحى ليبيا ، والسعودية ، والكويت والكل يسعى للحصول على عقد عمل ، أفرغت أغلب البيوت من أربابها ، وأفلت زمام الأسر ، تمتلئ الحوارى طول النهار ومعظم ساعات الليل بالأطفال والصبية والشباب ، كأن البيوت لم تعد وظيفتها المأوى ، تتناثر هنا وهناك قصص الحب ، وتقوم المشاجرات بشكل شبه دائم والسبب فى الغالب الأعم علاقات مشبوهة أطرافها الرجال والحريم ..

كل يوم يمر ، تزداد كراهية كامل للحى ، وسكانه ، يشمئز من روائح العهر والفساد التى انتشرت ، يتمنى أن يخرج منه ولا يعود..

إكتشف ذات يوم فجأة علم أبويه بماكان بينه وبين عزيزة ، وجد نفسه فى موقف الزمه الجمود ، ماذا يقول ؟ ماذا يفعل ؟

دبت فى صباح ذلك اليوم معركة بين ساكنة الدور الأول وعزيزة ، لايدرى كامل أسبابها ، وإنما إستيقظ على العراك ، تبادل الشتائم والسباب ، تبادل الإتهامات بالعشق والفجور ، سمع كما سمعت أمه إسمه يتردد على لسان ساكنة الدور الأول خرجت الأم وأطلت متسائلة : ماله كامل ، جايبين سيرته ليه ؟

ردت الساكنة : ماتعرفيش ياأم كامل إن إبنك كان عشيقها ..

صاحت عزيزة : إخرسى قطع لسانك ، ....

صفقت الساكنة بيديها : ليه ياأختى ، شفتينى كنت باتمشى مع حد على الكورنيش ، والا كنت قاطعه الخلف وحبلت ..

وقالت إبنتها : والا حد كان بيبوسنى على السلم ..

وقف كامل يشد أمه من ذراعها : أدخلى ، إحنا مالنا ..

قالت : على رأيك ..

ثم وجهت حديثها إلى المتعاركتين : على كل حال إبننا راجل يعمل اللى هو عايزه ..

ودخلت ، أغلق كامل باب الشقة ، يصل إلى أذنيه كل مايدور على السلم ، ثم صراخ عزيزة وبكاءها ..

إنتهت المشاجرة بوقوع عزيزة على السلم ، وكسرت ساقها ، أرادت أم كامل الخروج من الشقة للإطمئنان على عزيزة والجنين الذى ينمو فى بطنها لكن كامل منعها ، وقال لأمه : يعجبك نسايب إبنك ، عالم شلق ..

قالت أمه : وهو إحنا وافقنا الا لماقال ، ح تحضروا أهلا وسهلا ، مش ح تحضروا أهلا وسهــلا ، البنت وأمها لحسوا عقله ..

– طبعا ياستى مش داخل خارج عندهم كل يوم ..

ظن كامل أنه أبعد ذهن أمه عما تردد فى المعركة عن علاقته بعزيزة لكنه يدرك إعادة سرد ماحدث أمام أبيه ، إستغرق فى التفكير ، والبحث عن مخارج للموقف اللى وجد نفسه فيه ولم يكن له فيه ناقة ولا جمل ، وأخيرا إهتدى الى الفكرة ..

قال لأبيه وهو ينظر إليه تلك النظرات التى يفهمها جيدا :

– اقطع دراعى يابابا إن الخناقة دى مفتعلة ، ومقصودة ..

– يعنى إيه ؟

– يعنى علشان عزيزة تعزل وبنتها تتجوز فى الشقة ..

رد الأب فى شئ من الإستبشار .. ياريت تعزل .. أنا عارف كل حاجة وساكت ، البيت ح يتضف لو عزلت ..

قال كامل فى دهشة واستغراب :

– عارف إيه يابابا ؟

قال الأب بعد أن أبعد الأم لتعد الشاى: إسمع ياابنى ، إنت شاب وعزيزة شابة ، إنت معذور ، وهيه معذورة .. إنت مثلا دخلت التلاتين ولسه عازب ، فيك حيويه يلزمها تصريف ، أنا أبوك ، وعارف انى كان لازم أجوزك من زمان ، لكن العين بصيرة والإيد قصيرة ، الحياة بقت صعبه ، يعنى أنا يوم ماتجوزت أمك ، كلفنى الجواز كله عشرين جنيه ، وكان عندى الشقة ، ولو ماكانش عندى الشقة كانت الشقق متوفرة ورخيصة ، النهاردة عشان تتجوز عايزلك ألف جنيه ، إنت عارف أنا وافقت على جواز أخوك ليه ؟ لقيتها فرصة ، ح يتجوز ببلاش ، حماته مستعدة لكل حاجة ومش عايزه يمشى السكة اللى انت مشيت فيها ..

قال كامل : إذا كنت أنا مشيت ورا شبابى ماوقفتنيش ليه ؟

– أوقفك إزاى وأنا ماعنديش بديل ..

– وتسيبنى أغرق فى الخطيئة ..

– أهون الضررين ياابنى ، قلت حاجة تشغلك عن السياسة ، وأنا أعرف السياسة

الأيام دى يوم لك ويوم عليك ، أنا أتمنى أشوفك قدامى مقطع السمكة وديلها ، ومااقدكش فى يوم وماعرفش إنت فين .. البلد كل يوم فى حال ، والشباب اللى زيك بيختفوا ، ماحدش بيعرف لهم طريق ، وقبل ده كله كنت عارف إنها نزوة وتنتهى ..

كان كامل مستغرقا فى التفكير وفى نفس الوقت لاتفوته كلمة مما يقول أبيه ، يجد فيما يسمع نظرة أعم وأشمل من نظرته الضيقة للحياة ، يدرك إحساس العجز الذى ينغص على أبيه حياته ، أدرك فى نفس الوقت سر الموافقة السريعة على زواجه من بطة حين أطلقت سعاد شائعتها ، توقف تفكيره عند دخول أمه تحمل صينية الشاى ، كما توقف الأب عن الإستطراد ..

تجددت المعركة فى المساء بين زوج عزيزة وزوج ساكنة الدور الأول .. ، أقام بعض الجيران مجلسا للصلح إمتد حتى منتصف الليل تمخض عن عدم الاحتكاك بين النساء ، وعرف الجميع بنية زوج عزيزة وهى البحث عن شقة ينتقلا إليها ..

إنتقلت عزيزة بعد أن شفيت ساقها التى وضعت فى الجبس إلى الشقة الجديدة ، بعيدة تماما عن الحى ، ولم تجئ موافقتها إلا بعد أن تبين الأطباء أن حملها كاذب، حينئذ أحست بأن فشلها فى الإنجاب سيكون نقطة ضعف تنغص عليها حياتها بين نساء الحى ، كأنه وصمة عار لصقت بها ، فاقت وصمة الفضيحة التى تكشفت عن علاقتها بكامل ، ووصلت أذنى زوجها ، وقد إضطرها للموافقة حين خيرها بين الإنتقال معه ، أو الطلاق منه ..

إحتل أخوه شقة عزيزة ، تزوج ، أنجب أول أولاده ، أحس كامل بأنه أصبح عما لطفل ، ومازال هو واقفا مكانه ، وعليه أن يغير حياته ، أن يبدأ خطوات جادة نحو بناء أسرة ، فكر فى الزواج بأى فتاة ريفية من بلدة أبيه ، لكن الفكرة وئدت لحظة ولادتها رغم سهولة تنفيذها ، وقلة تكاليفها ..

أخيرا إستقر رأيه على البحث عن عقد عمل ، السفر للعمل فى الخارج حتى يمكن تدبير احتياجات الزواج وبناء البيت الذى سيضمه وزوجته ومايرزقه الله من أولاد ..

وبدأرحلة البحث ، وإعداد الأوراق ..

(٢٤)

استيقظ كامل فى الصباح ليسمع خبر عودة سماح ، دوت زغاريد أمها فأيقظت النيام فى منتصف الليل ولم تستطع سماح منع أمها وهى تردد :

– ياوليه بلاش فضايح .. ياوليه خللى الطابق مستور ..

لكن الأم لايهمها على أية حالة عادت إبنتها بقدر رؤيتها ثانية على قيد الحيـاة ، إحتضنتها وأشبعت وجهها بالقبلات ، تتحسسها : يابنتى .. ياحبيبتى .. تبكى الأم وهى تتلقى التهانى من بعض الجيران . تعود إلى إبنتها :

– دنا كنت يتيمة من غيرك ..

وتعاود إحتضانها وتقبيلها .. كده ياسماح .. امك هانت عليك ياحبيبتى ..

وقف كامل فى الشرفة يتطلع لرؤيتها ، يستطيع بنظرة واحدة أن يكتشف سماح العائـــدة ، ويعرف أى مصير تلقفها ، و أية حياة لفظتها لتعود بعد غياب طويل ..

عادت إلى مخيلته صورتها القديمة ، كان ينظر إليها نظرته إلى وردة وسط كومة من القمامة ، وكم راودته فكرة الزواج بها ، والصعود بها درجة وراء درجة ، لاينقصها إلا المال ، به يمكن أن ترقى إلى مصاف أى طبقة من طبقات المجتمـــع ، وأن تكون سيدة مجتمع بمعنى الكلمة .. كان يحب اختلاس النظر إليها ليرى مدى الإهتمام على قدر المستطاع بنفسها ، ويلفت نظره دائما عيناها الكحيلتان ، وحمرة شفتيها التى لم يمسهما طلاء قط ، تعجبه ربطة منديـــل الرأس ، والترتر يضوى تحت أشعة الشمس ، ترى ماذا تغير فى قوامها المتناسق ، لاهى بدينة ولا نحيفة ، لاطويلة ولا قصيرة كغصن يتعهده صاحبه بالرعاية الدائمة ..

يشهد كامل مهرجان الأطباق الفارغة حول عربة بائع الفول المدمس ، يشهد النساء يدخلن إلى حجرة سماح ، ويخرجن ، يود أن تناديها إحداهن فتخرج ليراها ..

أتاه صوت أخيه من الشرفة العلوية : إيه ياكامل .. ماعندكش شغل النهاردة ..

رفع كامل رأسه : ياأخى قول صباح الخير الأول ..

- صباح الخير ياسيدى ..

- أنا فى أجازة عارضة النهارده ..

- وأنا شرحه ، طيب ماتيجى تشرب معايا الشاى ..

- متشكر ..

كعهـده دائما ، يدعوه أخوه لشقته ، يشكره أو يعتذر ، يعرف أن أخوه تزوج ، وانتهـى الأمر إلى واقع لافرار منه ، لكن نفسه لاتهضم دخول بيت كان أول الرافضين لإقامته ، وزواج كان أول الواقفين ضد إتمامه ، رغم توسل أخيه أكثر من مرة ليعـزز وضعه أمام زوجته :

- عيـب ياكامل .. أنا أخوك الصغير ولازم تزورنـى ، مراتـى تقول إيه ، إنك مقاطعنى ..

- أنا زرتك كتير ..

- فى المناسبات بس .. مافيش مرة تقول أما أطلع أسهر مع أخويا ..

يتعلل كامل بارتباط وهمى ، ومشاغل لا وجه لها من الصحة ، يتلقى العتاب من أمه وأبيه ، لكنه إلتزم أمام نفسه بموقف محدد لايحيد عنه ..

إضطر إلى ترك الشرفة حتى لايثقل عليه أخوه بالدعوة ، إنشغل بتصفح الصحف ، والإستماع إلى المذياع ، وبين الحين والحين يطل من الشرفة إطلالة عابرة علّه يلمح سماح وقد خرجت من الحجرة ..

يعرف جيدا أن غايته ستتحقق فى نفس اليوم ، مجرد مشاجرة فى الشارع لابد وأن يخرج الجميع لمشاهدتها إن لم يكن المشاركة فيها ، ولايمر يوم دون مشاجرة ولو بين الأطفال أوالصبية ، وتمنى قيام تلك المشاجرة سريعا رغم مقته للحى وسكانه بسبب تلك المشاجرات اليومية ..

إرتفع صراخ صبى ، إندفع كامل نحو الشرفة ، إلتف الناس وتساءلوا :

- فيه إيه ؟ إيه اللى حصل ؟

قال صبى : الراد أبو عجلة وقع من العلى طق الفول ..

وانصرف كامل كلية إلى حجرة سماح ، رآها خيالا تقف فى جانب مدخل باب البيت ، تحاول ألا تبين جسدها كلية، رأى أول مارأى قدمين يعرفهما جيدا ، ثم جانبا من جانبيها ، وذراعا يمتد تستند يده على الحائط ، ثم تقدمت خطوة ، رأى جانبا من فتحة صدر جلبابها ، بدت له تفصيلة غير مألوفة فى الحى ، ثم بدا عنقها ، ثم فوجئ بها كلها ، وعيناها تسقطان دفعة واحدة فى عينيه ، ولايدرى ماتبادلا من إشارات بهزات من رأسيهما ، ولاأحس بذراعه وهى ترتفع وتشير عليها بالخروج فى إتجاه الشارع العمومى ، واختفت للحظة خالها دهرا ، ثم رآها تأخذ طريقها دون الإلتفات يمنه أو يسرة كأنها قطار له اتجاه واحد لايعقل ولايفهم .. وفى التو ترك الشرفة وغادر البيت فى عجلة ، لايرد تحية لأحد ، ولايلقى تحية لأحد ..

بدأت فى الشارع العمومى تلقى نظرة وراء نظرة خلفها ، لمحته يجد فى أثرها ، أبطأت خطواتها حتى لحق بها ، همس دون أن يلتفت : أنا ح اسبقك عند النادى ..

إنطلقت وراءه ، تضع خطواتها فوق خطواته ، تشعر بسعادة جعلتها تحلق كعصفور صغير ، ترتسم فوق شفتيها بسمة تحس لها طعما حلو المذاق ، تود أن تصيح بأعلى صوتها : كامل .. أنا باحبك ياكامل ..

تود أن تضحك وتجلجل ضحكاتها حولها ، ويقول المارة عنها «مجنونة» ، تولدت الدموع فى عينيها ، لاتدرى أهى دموع فرح لخروج جنين الأمل إلى الحياة ، أم دموع حزن على رحلة طويلة أكلت من عمرها السنين ، ومن حياتها البراءة والعفاف ..

دلفت إلى النادى وراءه ، جلست فوق المقعد الرخامى إلى جواره ترتعش يداها ، ينتفض جسدها ، تزم شفتاها حتى لايسمع إصطكاك أسنانها ، تسقط عيناها على حذائه ، ساقيه ، ركبتيه ، يديه ، ذراعيه ، تخطف نظرة على وجهه ، تغيم الدموع على عينيها فلا ترى معالمه ..

- سماح

- أيوه ياكامل ..

وفى لهفة تنظر إليه : أنا قلت كامل ..

- أيوه ..

- اصلى ماكنتش انطق اسمك الا فى سرى ..

- قلتيه وسمعته ..

تنهدت ويده تمسك يدها : كان نفسى انطقه قدامك من زمان ..

- اتقابلنا كتير فى المدرسة ..

- كنت باأقولك ياأستاذ ..

هز رأسه : أه .. كنت فين ياسماح ؟ بعدت عن امك والحته كلها ليه ؟

- دى رحلة ياكامل عمرى مافكرت أقوم بيها .. لقيت نفسى فيها ..

- احكيها لى ..

- دلوقتى .. ماأقدرش .. دلوقتى عايزه أفضل أبص لك وبس ..

- قد كده بتحبينى ..

تطلعت إلى عينيه ، رأى الدموع تنبت فى عينيها ، قالت :

- تعرف امنيتى إيه دلوقتى ..

واستطردت وهى تجفف دموعها : أمنيتى أموت ، ولا أسمع صوت غير صوتك ، ولاأشوف صورة غير صورتك ..

قال كامل بعد تردد طويل :

- رغم كل ده ياسماح ، أنا اماقدرش أتجوزك ..

- عارفه ياكامل.. لكن تقدر تحبنى زى ماباحبك ..

ربت كامل كتفها الملاصق لكتفه ، قام واقفا :

- يمكن أما أعرف حكاية غيابك يكون لى رأى تانى ..

قالت فى لهفة : أحكيها لك ..

- مش دلوقتى، عندى ميعاد بعد شوية ..

وقفت سماح قبالته : ح أشوفك تانى ..

- طبعا .. مع السلامة انت ..

مدت يدها ، وضعتها فى يده ، تركتها ، أصابعها تبث أصابعه دفقة حب ، فوجئ بها تلتصق بصدره وتشهق بالبكاء : خايفة أسيبك ، خايفة أبعد عنك ..

أبعدها كامل بهدوء وحنو، وقال : ماتخافيش ، إرادة ربنا فوق كل شئ ..

تبادلا نظرات الوداع ، أخذ كل منهما طريقا مغايرا لطريق الآخر ..

يعرف كامل مقدما إستحالة موافقة أبويه على زواجه من سماح ، يعرف أيضا ماقد تتناوله ألسنة الناس فى الحى لو تزوجها ، ويعرف أيضا أن النسيان يطوى كل شئ بمجرد وقوع شئ آخر ..

إستعاد صورة سماح وهو فى طريقه إلى البيت ، لم تعد تلك الفتاة التى عرفها ، تحول جسدها إلى جسد إمرأة تضخم صدرها ، برز نهداها أمامها ، تضخمت شفتاها ، تحول لون بشرتها الأبيض للون الخمرى من كثرة الإنفعال ، وهياج الأحاسيس التى تزيد سرعة سريان الدم فى الأوردة والشرايين ، صارت أنثى كاملة النمو ..

يرى نفسه على طريق السفر ، هل يعدها بالزواج ؟ هل يتركها ومصيرها للأيام ؟ هل يملك ضميره ولا يندم على ضياعها فى المستقبل القريب أو البعيد ؟ هل هو يحبها حقا ؟ وإذا كان فلم التردد ؟ أخوه تزوج ضد رغبة الأسرة كلها ، عادت الأمور إلى طبيعتها بعد الزواج ، بطة تزوجت هى الأخرى ، عزيزة تركت الحى بأكمله ، ولعلها الآن فى أحضان عشيق آخر ، وأخيرا ، أين الزوجة التى يستطيع أن يأمن جانبها ، ويعيش معها حياة سوية لايشوب سلوكها شائبة ..

(٢٥)

كان الأستاذ حسنى فى قمة السعادة وهو يمشى فى خيلاء أما العربة النقل الكبيرة التى دخلت الحى فى الصباح الباكر ، يلقى التحايا على كل من يلقاه فى فرح ولم يلتفت أحد إلى المرأة والصبى اللذين يجلسان بجوار السائق ، توقفت العربة أمام

بيت زوجته قمر الذى ورثته عن أبويها بعد زواجها منه ، دخل الأستاذ حسنى وبعد هنيهة دوى صراخ قمر يخلخل ذبذبات الهواء وينتشر فى دوامات لينتقل إلى كل الناس ، تجمهر عدد كبير حول العربة النقل ، خرجت قمر تصيح فى الناس :

– إتفرجوا ياأهل الحتة ، بعد عشرة تلاتتين سنه طلع متجوز عليه ..

يحاول حسنى تهدئتها وإعادتها إلى داخل البيت ، تهد ذراعيه فى عنف :

– إوعى كده ، لازم أخلى فضيحتك بجلاجل ..

صاح حسنى : أنا ما أجرمتش ، كان نفسى فى حتة عيل .. إتجوزت ..

– وتخبى عليه السنين دى كلها ..

– كنت مستنى الوقت المناسب ..

تدخل أحد الجيران ، دفع قمر برفق إلى الداخل : مش وقته ، إللى حصل حصل ..

جلست فى صحن مدخل البيت تبكى ، بينما أدخل حسنى زوجته وابنه إلى إحدى الحجرات ، وأمر العمال بادخال المنقولات إلى البيت .

تندب قمر حظها :

– بقى دى آخرة العشرة ، لأ وإيه بيفاجئنى ، أعمل إيه ياأخواتى ، أتصرف إزاى ..

دلفت إحدى النساء ، جلست إلى جوارها وهمست :

– إعملى له مجلس رجالة يجيبوا لك حقك ..

– حقى ، هو فين حقى ده .. ماضيعنى خلاص ..

قامت فجأة ، أمسكت بذراعيه ، أخذت تهزه وتصيح :

– أنا مش قاعدة لك ، أنا عايزة فلوسى ..

– فلوس إيه ياقمر ..

– فلوس الأرض ، الفلوس إللى لسه قابضها الإسبوع إللى فات من الحكومة ..

أخذ يربت كتفها : حاضر ياقمر .. هدى نفسك دلوقتى .. حاضر ..

– تخوننى ياخاين ..

دوت صفعة عنيفة على وجهها ، توقفت أنفاس الجميع ، صاح سائق العربة النقل فى عماله : بسرعة يارجالة خلينا نفور من هنا ..

جلست قمر بعد الصفعة صامتة ، تتلفت حولها فى خجل ، إضطراب ، أحست بالدم يسيل من كرامتها المجروحة ، من حياتها التى إنتهكت ، فرق حسنى النسوة المجتمعات .. لو سمحتم ، كل واحدة تروح لحالها ..

إنتشر الخبر فى أزقة الحى وحواريه أسرع من سريان الدم فى أوردة وشرايين الجسد الواحد ، تكونت الجماعات عند النواصى ، وأمام أبواب البيوت ، وصلت الأخبار إلى سعاد وعلقت قائلة :

- أدى إللى كنا فاكرينه كبير الحته ، كلهم نماروده ..

قالت سماح لمن إلتفوا حول أمها : الراجل متجوز على سنة الله ورسوله ، فيها إيه !!

وقال كامل لأبيه : كان يجب عليه يقول لها الأول ..

رد الأب : يمكن الظروف أقوى منه ، مالحقش يديها خبر ، أنا سمعت فى القهوة إن البيت إللى كان مسكنها فيه ح يقع ..

علقت الأم : يبقى معذور ، ح يقعد مراته وإبنه فى الشارع ..

كلت قدما قمر من السعى إلى الرجال الذين توسمت فيهم القدرة على الوقوف إلى جانبها ، تلقت صدودا ، ووردودا تكاد تكون متفقة ، إستقرت أخيرا فى بيت عمها تبثه شكواها ، وتحفزه للمطالبة بكافة حقوقها ، قال العم : أنا مش ح أسيبك ، بس نتكلم فى إللى يهمنا .. حكاية جوازه ده حقه ، مالناش كلام فيه ..

- فى ستين داهيه هيه وهوه ، بس مايقعدوش فى بيتى ..

قال العم ، وحبات السبحة تفر وراء بعضها بين أصابعه :

- بس مانقولش كده ، ده برضه جوزك ..

- يطلقنى ..

- بعد تلاتين سنة ياقمر ..

- آه ، يطلقنى ..

وإن قال لأ

- ح أرفع قضية

قال العم غاضبا : بالطريقة دى مش ح نوصل لحل

- هوه فيه حل غير كده ياعمى ..

أسند العم ظهره ، مسح جبهته بيده ، إستعاذ بالله من الشيطان ، قال :

- شوفى يابنتى ، إنت عارفه إن أنا عجزت خلاص ، يعنى رجلى والقبر ، وعارفه كمان إن ولاد عمك كل واحد غرقان فى همه ، ومتنطورين كل واحد فى حته ، واللى ممكن يستحملك النهاردة ، مش ح يستحملك بكره ، يعنى باختصار بيتك أولى إنك تقعدى فيه معززة مكرمة ، والواد ممكن يبقى إبنك بشوية حنان ، شوية أمومة .. يمكن ربنا يعوضك بيه عن حرمانك ..

دخلت زوجة العم بعصير الليمون ، قدمته لقمر :

- روقى يابنتى دمك ، الدنيا مش دايمة لحد ..

قالت قمر باكية : دنا ح اموت ناقصة عمر من عملته دى ..

قال العم : أستغفر الله العظيم ، الأعمار بيد الله يابنتى .. شهاده لله ، حسنى ماغلطش فيك غلطة واحدة من يوم ما إتجوزك .. تقوم النهاردة تعمل كده ..

- دى أكبر غلطة فى حياته ياعمى ..

علقت زوجة العم : مش ممكن كان يفضل حوازه فى السر لغاية مايموت ، أو تموتى أنت ، كنت ح تعملى إيه ..

قالت قمر : كلامك ده ياعمى بيكسر مآديفى ..

تمتم العم : الحمد لله .. قومى ياأم على إبعتى حد ينادى لحسنى ..

- حاضر ..

قامت زوجة العم وخرجت ، قال العم :

- إسمعى ياقمر ، أنا مش عايز تتكلمى ولا كلمة ، مفهوم ..

- حاضر ياعمى .. حاضر .. أمرى لله ..

- كده تبقى بنت حلال ، ربنا شايف كل حاجة .. وله فى ذلك حكم ..

دخل حسنى محييا فى إعزاز كعادته : إزيك ياحاج ..

وبعد أن جلس : إزيك ياقمر ، إن شاء الله يكون ربنا هداك ..

تطلعت إليه بعينيها ، ثم دفنتهما فى صدرها . إلتفت حسنى إلى الحاج وقال :

- الحكاية ياحاج باختصار ، أنا رضيت بقسمتى ونصيبى ، عشت مع قمر راضى ، لكن إرادة ربنا فوق كل شئ ، واحد زميلى توفى وكانت مراته زى قمر كده لاتعرف تروح يمين ولاشمال، وأهلها كل واحد فى واديه ، إترجتنى اسعى لها فى المعاش ، وكنت كل شهر أقبضه بتوكيل منها وأوديه لها فى البيت ، مرة ورا مرة حسيت إنها بتتغير ، آخر مرة سألتها : (مالك ..)

قالت لى (أنا خايفة من كلام الناس ، صحيح إنت بتيجى كل شهر مرة عشان تجيب لى المعاش ، لكن الناس لهم الظاهر ..).

قلت لها (يعنى إيه)

قالت لي (يعنى الناس بتتكلم ، إزاى واحد غريب يدخل بيت أرملة ، ووحدانية ..) الحقيقة ياحاج ، أنا حسيت إنها بنت أصول ..

قاطعه الحاج : المهم إنك إتجوزتها ..

- أيوه ، وقلت فى نفسى يمكن ربنا يعوض عليه بحتة عيل يشيل إسمى من بعدى ..

- طيب ياحسنى، ماجتش وقلت لى مثلا ، أو فاتحت قمر وفهمتها .. ليه ؟

- الحقيقة ياعمى ، أنا قلت إنها تعيش فى شقتها ، وأنا مع قمر، ونبعد عن المشاكل .. لكن الظروف إتغيرت ، البيت إللى قاعده فيه قديم ، حيطانه إتشققت ، ومعرض للسقوط ، وفعلا الشرطة طلبت من السكان يعزلوا ، لقيت نفسى مضطر ..

- وابنك عنده كام سنة ..

- أربعتاشر ..

- ربنا يخليه لك ، وتفرح بيه ..

- تعيش ياحاج ، ياريت قمر تعتبره إبنها وتفرح بيه معايا ..

- ربنا موجود ، طيب ياحسنى ، ممكن تسيب قمر عندى يومين ، أما نفسها تهدى ، وربنا يقدم مافيه الخير ..

- أمرك ياحاج .. أستأذن أنا ..

خرج حسنى ، قال العم لقمر :

- قومى ياقمر ، ساعدى مرات عمك وحضرى لنا العشاء ، وربنا يفرجها ..

عرج حسنى على المقهى فى طريقه ، جلس وطلب قهوة ونرجيلة ، جلس إلى جواره المعلم عيد يدخن سيجارته ، تصاعدت رائحة الحشيش ، قال حسنى :

- مش ناوى تبطل الهباب ده يامعلم .. العقوبة دلوقتى أشغال شاقة ..

- والله أرحم من الأشغال الشاقة إللى أنا فيها ..

- لسه فيه مشاكل ..

- تهد جبال بينى وبينك ، ح اعمل زيك قريب ..

ضحك حسنى وقال : تانى يامعلم ..

- تانى وتالت ، لازم أربى بنت الكلب دى ..

كأن الأرض إنشقت عن سعاد ، فوجئ بها حسنى والمعلم عيد ، تهجم عليهما ، تمسك بتلابيب جلباب عيد زوجها ، تهزه فى عنف ويتجاوب معها :

- تربى مين ياعرة الرجالة ..

لم يستطع عيد تمالك نفسه ، لجمته المباغتة ولم يفه بكلمة حاول حسنى إبعادها ، دفعت به بعيدا فوقع وأوقع عددا من الكراسى كانت وراءه :

- إبعد . جتك نيلة إنت التانى ، بقى ياراجل تغدر بالولية بعد تلاتين سنة .. الناس فاكراك موسى طلعت فرعون ..

قام حسنى ، نظف ملابسه مماعلق بها من تراب ، غادر المقهى على الفور .. دفعت سعاد بزوجها نحو البيت :

- قدامى ، أما نشوف مين ح يربى التانى ..

وقف بعض رواد المقهى ، يتضاحكون ، صفق بعضهم بيديه ، التفتت سعاد

نحوهم صائحة : جرى إيه ياصايع إنت وهوه

لفهم الصمت جميعا ، عادوا إلى مقاعدهم ، أحدهم يقول :

- إحنا مالنا ياعم ، واحده بتربى جوزها ، ايه دخلنا ، ياكلوا بعض .

علق آخر : تصور أنا كنت شايفها واقفه بتتصنت ، ماافتكرتش إنهــا بالوحشية دي ..

رد آخر : نسوان حتتنا بقوا رجالة .. آه يابلد ..

(٢٦)

أخذت الأمور فى الإستقرار ببيت الأستاذ حسنى ، وهدأت نفس قمر بعد أن ذهبت زوجته اليها فى بيت عمها ، عملت مافى وسعها لترضيتها ، ولم تقتنع قمر إلا بعد أن قالت عن نفسها :

- أنا واحده صاحبة عيا ، عندى القلب ، وممكن أطب ساكتة فى أى وقت ، وكنت دايما أقول لحسنى خد إبنك وعرفه على الست قمر عشان أما أموت مايحسش بالغربة ، دلوقتى أنا باحمد ربنا إللى له أم تانيه ، ولو مت ح اموت مستريحة ..

ردت قمر : بعد الشر عنك ياأختى ..

- من قلبك قولك ياأختى دى ..

قال العم : قمر عمرها ماشالت فى قلبها ضغينة لحد ، المفاجأة بس اللى خرجتها عن طورها..

- يعنى خلاص ياست قمر ، إعتبرينى ضيفة عندك .. قومى معايا .

لم تجد قمر مفرا من العودة إلى بيتها معها ..

فى ذات الوقت كانت النيران متوهجة فى بيت سعاد ، أمضت الليل فى عراك مع زوجها ، على مرأى ومسمع من الجيران ، ولم يستطع أحد النوم مع صوت الضوضاء ، والهرج والمرج ..

خرج المعلم عيد فى الصباح ولم يعد ، فتشت عنه فى كل مكان من الأماكن التي تعرفها ولم تعثر عليه ، سألت جيرانه عند الدكان ولم تفز بطائل ، ذهبت إلى صبيانه ولم تخرج بإجابة شافية ، تواصل ليلها بالنهار الفائت ، وقامت مبكرة ، جلست على مبعدة من الدكان فى إنتظاره ..

فى تمام التاسعة والنصف ، توقفت عربة أجرة ، نزل منها المعلم عيد فى حلة أنيقة ، جديدة ، نقد سائق العربة أجره ، أخرج من جيبه رزمة المفاتيح ، وقف أمام

باب الدكان ، تماما كمفاجأة الأمس القريب ، إنقضت عليه سعاد ، خطفت زرمة المفاتيح ، دستها فى صدرها ، قالت : وريني ح تعمل إيه ..

نظر إليها المعلم عيد شذرا ، قال :

- يافتاح ياعليم ، يارزاق ياكريم .. هات ياست المفاتيح ..

- مافيش مفاتيح ، الدكان دكانى ، روح مطرح ماكنت ..

- هات المفاتيح وبلاش فضايح ..

أمسكت بكم جاكتته :

- بدلة جديدة كمان ، ومتريح ، أنه مره لبوه كنت بايت عندها ..

جذب ذراعه ، رفعها لأعلى ، هددته قائلة : إياك تمد إيدك ..

وأشارت إلى عدد من الشباب يقفون على مبعدة : ح يقطعوك حتت ..

قال عيد والغضب يطحن صدره : مأجرة ناس تضربني ياسعاد .. طيب ورحمة أمي وأمك ماأنا راجع لك تانى .. النهاردة ح توصلك ورقة طلاقك ..

ومشى مبتعدا ، إستوقف عربة ، وأمر سائقها بالإنطلاق بسرعة .. أفاقت سعاد تلفتت حولها ، صاحت: هوه راح فين؟

رد أحد جيرانه : ركب عربية ومشى ..

ضربت صدرها هاتفة فى ثورة : طيب ياعيد ..

أصدرت أوامرها إلى زمرة الشباب :

- إنت تفتح المحل .. وإنت تجيب عربية حالا ، وإنت تلم السكاكين والفوط والميزان وكل حاجة رفيعة وتلفهم .. وإنتم تخرجوا القورمة والثلاجة بره ..

ساعة زمن واحدة ، وقفت سعاد بعدها تتشفى برؤية الدكان خاوية على عروشها ، أغلقت بابها الزجاجى ، ألقت بالمفاتيح إلى جاره :

- أما ييجى إدى له المفاتيح دى ..

وانصرفت تسبقها العربة الكارو محملة بحاجيات الدكان ، تمتم الرجل بعد انصرافها : لا حول ولا قوة إلا بالله ..

ذهب المعلم عيد من فوره إلى قسم الشرطة ، قدم بلاغا ضدها ، صحب معه شرطيا وعاد إلى الدكان ، فوجئ بالدكان خالية من كل أدوات عمله ، وقف فى حيرة ، وفى بلاهة ، يشعر بالخراب الذى أحاط به من كل جانب .. بعد قليل تصل عربة الذبائح ، ماذا يفعل ؟ كيف يتصرف ؟ قال للشرطى : إثبت الحالة ياشاويش .. وأشار إلى جيرانه :

– وقدامك الشهود ..

جلس على كرسى جاء به صبيه من القهوة القريبة ، يكاد الشلل يصيب رأسه ، شرب فنجان القهوة دفعة واحدة ، طلب فنجانا آخر ، نادى صبيه الثانى وقال :

– روح عند المعلم حبشى ، قول له المعلم عايزك ..

جرى الصبي ، الأفكار تهرول وراء بعضها فى رأس المعلم عيد ، فكرة تدفع به للذهاب إليها والتخلص منها ، فكرة تدفعه لأن يأخذ معه ابنه ويهجر البلد كلها ، وفكرة ثالثة تدفعه للذهاب إلى المأذون فى الحال وتطليقها ، عاد الصبى وفى أعقابه المعلم حبشى ، نهض المعلم عيد مرحبا : إتفضل يامعلم ، كرسى ياواد وقهوة للمعلم ..

جلس المعلم حبشى ، ظل عيد واقفا حتى جاء بالكرسى ، جلس وقال :

– يعجبك إللى حصل ده يامعلم حبشى ..

– إنت اللى غلطان ، دى وليه ماحدش يعاشرها ، إزاى قاعد معاها لحد دلوقتى ..

– خلاص يامعلم ، أنا نويت أطلقها ..

علق المعلم حبشى فى لهجة ساخرة : وبترجع لها تانى ..

قال المعلم عيد فى ثقة :

– المره دى خلاص ، إتخلصت من السحر إللى بتعمله معايا ، عملت له الضد ..

– كده يبقى ربنا تاب عليك ..

قدم الصبى القهوة للمعلم حبشى ، قال الشاويش بعد أن أخذ أقوال الشهود :

– أنا دلوقتى راجع القسم ، وح نستدعى المذكورة ، وح نبقى نبعت لك .. .

مد المعلم عيد يده صافح الشرطى : متشكرين قوى ياشاويش ..

إنصرف الشاويش ، وأكمل المعلم عيد : والعمل دلوقتى ، زمان اللحم جاى فى السكة ..

– ولا تشغل بالك .. أنا عندى تلاجة زيادة ، وح ابعت القورمة اللى بنشفى عليها .. مشى بيهم حالك ..

- شوفى لى كمان سكينتين وساطور وخطافين ..

قال المعلم حبشى : بس أنا ماعنديش ميزان ..

- أنا ح اتصرف ، إن شالله اشترى واحد جديد دلوقتى ..

وضع المعلم عيد ماأمكنه الحصول عليه ، والغضب يملأ صدره ، يحاول ألا يفكر فى سعاد إلى حين الإنتهاء من يوم العمل ، لكنها تأبى مفارقة خياله ، تتراءى له وهو يبيع للعملاء واقفة تضحك ساخرة منه ، يضرب السكين فى لحم الذبيحة بعنف ، يرد على تساؤلات البعض باقتضاب ، يدخن بشراهة ، حين يخلو الدكان من الزبائن ، يرتكز بكوعه على سن السكين المستقرة قاعدتها على القورمة ويحدق فى الأفق .

عند الظهر لمح سعاد تقف على مبعدة ، تراقبه ، تقف إلى جوارها نجوى إبنة أختها أم عبدالله ، يراهما تتبادلان الكلمات عبر شفاههما التى تتحرك ، ظنهما يدبران أمرا ، خرج شاهرا السكين ، عندما اقترب جرت سعاد صارخة ، أمسك بنجوى من ذراعها : عايزين إيه ، بتدبروا إيه تانى ..

قالت نجوى خائفة : ولا حاجة يامعلم .. أنا كنت فى السوق وقابلتها ..

- يابنت ، أنا شايفكم بتتكلموا .. قالت لك إيه ، وقلت لها إيه ..

- ولا حاجة والنبى ، كانت بتسألنى إنت شغال على إيه .. وبتعمل إيه ، وكام زبون واقف قدامك ..

- ليه وعينيها فين ؟

- بعيد عنك ، نظرها بقى على قدها ..

ترك ذراعها ، بسط راحتيه وتطلع وجهه نحو السماء هاتفا :

- عقبال مارينا يهدها خالص ، وأفرح فيها ..

ثم فى غضب : إمشى يابت من هنا ، وقولى لها ورقة طلاقها ح توصلها الليلة ..

(٢٧)

جرت سعاد بعد عودتها الى بيت شافية زوجة المرحوم شفيق ، إستقبلتها الأخرى

فى ضيق ، وبغير ترحيب ، قالت سعاد إلحقينى ياأختى ، عيد ح يطلقنى ..

- ليه ؟ حصل إيه تانى ؟ ..

جلست سعاد تقص عليها ماحدث خلال الأيام والليالى الأخيرة ، وماحدث صباح اليوم ، واختتمت حديثها قائلة :

- ولا حاجة من إللى أنا سقيتها له نفعت ، يكونش الراجل غشنى المره دى ..

قالت شافيه : إنت غلطانة ياسعاد ، كان لازم تلايميها شوية ..

- ألايمها ، وأسيب حسنى يتخن ودانه ..

- جوزك مش صغير ، ومش مستنى حد يحشى ودنه بأى كلام ..

قالت سعاد : إللى حصل بقى .. عايزاك تيجى معايا للراجل يعمل لى حاجة تانى ..

صمتت شافية برهة وقالت : الراجل ياأختى تعيشى إنت ، الرجل مات من شهر .. خبطت سعاد رأسها بيدها : يامصيبتى ، والعمل إيه ..

قالت شافية : خلاص ياسعاد ، إنسى الراجل ، وانسى الحاجات اللى كان بيعملها لنا ، وادعى ربنا يتوب علينا من الحاجات الحرام دى ..

قالت سعاد بصوت عال وفى غضب : يعنى أسيبه يفلت من إيدى .. مش ممكن أبدا ..

وقامت ، خرجت دون إلقاء تحية وداع ، وفى رأسها تختمر فكرة بدأت تنفيذها فى الحال..

أرسلت بطة لشراء كيلو لبن ، وأحمد لشراء كيس بخور ، وأمرت عادل زوج بطة بالذهاب إلى المعلم عيد ، وقالت :

- قول له إن سعاد ندمت على اللى عملته ، وكانت ساعة غضب ، وحاول تصفى نفسه ، وتهدى أعصابه ، وبعدين تستأذن وتيجى تقول لى قالك إيه ..

قال عادل فى استسلام : حاضر يانينة ..

بقيت للحظة شاردة ، ثم قامت ، أخرجت من درج البوفيه مظروفا كبيرا ، أفرغت مابه على السرير ، عثرت على صورة للمعلم عيد وحده ، دستها فى صدرها ، جمعت

الأشياء ثانية ودستها فى المظروف وأعادته إلى درج البوفيه، قامت إلى الحمام ، أراقت فيه دلو ماء ، ثم عادت ثانية وتناولت مسمارين ، وشاكوش، وقطعة من خيط الدوبارة ، عادت ثانية إلى الحمام ، دقت المسمارين على طرفى مساحة تقدر بنصف متر ، ربطت خيط الدوبارة فيهما ، جاءت بمشبك غسيل ، علقت الصورة فى الخيط ، عادت إلى الحجرة ، فتحت الدولاب ، أخرجت حذاء جديدا إشتراه المعلم عيد مؤخـــرا ، أخذته إلى الحمام ، وضعته على الأرض وجهه للبلاط ونعله فى مواجهتها أخذت قطعة من الصاج معدة كمبخرة ، أغلقت باب الحمام بالمفتاح ، دسته فى صدرها ..

عادت بطة ، وعاد أحمد ، تناولت منهما اللبن والبخور ، أمرت بطة بالذهاب إلى شقتها وأمرت أحمد بالذهاب مع أخته ، أغلقت سعاد باب الشقة خلفهما ، عادت وحملت اللبن والبخور إلى الحمام ، أغلقته عليها من الداخل ، تذكرت وابور الغاز ، خرجت ثانية إلى المطبخ ، أوقدته وصحبته معها ، فتحت الباب مرة أخرى ، خلعت جلبابها وألقت به على الأرض ، دخلت الحمام وأغلقته من الداخل بالترباس ، خلعت كل ملابسها وعلقتها على المشجب ، بدأت ترش البخور فوق المبخرة ، تتصاعد الروائح ، يمتلئ الحمام بالدخان ، تتحرك شفتاها ببعض التمتمات ، والتعاويذ ، تسعل بشدة ، تكاد تختنق ، تسعل بشدة ، ينطفئ وابور الغاز ، تتابعها نوبة سعال شديدة ، يرتطم جسدها بجدران الحمام ، تصطدم بالباب تحاول فتحه ، تتطوح يمنة ويسرة ، تتحشرج أنفاسها ، لاتخرج الصرخة من حنجرتها ، تسقط مرتطمة بأرض الحمام ، يسيل اللبن ، ينقطع حبل الدوبارة وصورة المعلم عيد فى قبضة يدها ..

قضى عادل حوالى الساعة مع المعلم عيد ، فشل فى تهدئته ، كما فشل فى إقناعه بالعدول عن فكرة الطلاق ، تركه وعاد إلى البيت ، دق باب الشقة لم يرد احـــد ، يتشمم أنفه رائحة البخور ، دق مرة ومرات ، نزل مهرولا إلى شقتـــه ، ســـأل بطة : أمك فين ؟

– فى شقتها ..

– ماحدش هناك ..

ضربت بطة صدرها :

– ياالهوى أنا سايباها هناك ..

هرول عادل عائدا ، وفى أثره بطة ، لفتت هرولتهما أنظار الناس ، تتبعهما البعض حتى باب البيت ، دق عادل الباب بكلتا يديه ، لحقت به بطة :

- إكسره ياعادل ، إكسره ..

دفع عادل الباب بكتفه عدة مرات ، إنفسخ الباب ، دخل وسط الدخان ينادى :

- نينه ، إنت فين يانينه ؟ ..

جرت بطة تفتش فى الحجرات ، لمحت الدخان ينبعث من تحت باب الحمام ، جرت إليه ، نادت عادل : تعالى ياعادل ، إكسر الباب ده .. إكسره ..

دفع عادل باب الحمام بكتفه عدة مرات ولم يفلح فى فتحه طلب منها أى شئ صلب يدسه فى الشق الصغير الذى بدا بين الباب وحلقه ، قالت بطة بسرعة :

- إكسر الشراعة الإزاز ..

رفع يده وقبل أن يهشم الشراعة قال : أحسن الإزاز يجرحها ..

- المهم إننا نخرجها قبل ماتموت من الدخان ..

كسر عادل الشراعة برفق ، إستطاع إخراج زجاج الشراعة على ثلاث قطع ، أطل ورأى حماته ، متكومة فى جانب من الحمام ، تعلق بالشراعة ودفع الترباس من الداخل ، وفتح الباب ، أطلت بطة ، وأطلقت صرختها المدوية ..

إستدار عادل وصاح فيها : إستنى أما نخرجها الأول .. ساعدينى ..

ساعدته بطة فى حمل أمها وحتى أرقداها فوق السرير ، قال عادل بلهفة ودقات كثيرة على باب الشقة لاتهدأ .. بسرعة لبسيها هدومها ..

أخذ عادل يخلع من ذراعها الأساور الذهبية ، يدسها فى جيبه ، قالت والدموع تغرق وجهها : بتعمل إيه ؟

- بعدين .. بعدين .. إخلصى بسرعة ..

- خلاص ..

- غطيها بالملاية ، وصرخى على قد ماتقدرى ..

إتجه إلى الباب يبكى ، يلطم خديه ، فتحه وعاد وفى أثره جمهرة من الجيران ، بطة مرتمية على صدر أمها تبكى وتصرخ ، جلس عادل القرفصاء فى الصالة يندب :

- ياخسارتك فى الموت يانينه ، لينا مين بعدك ياحبيبتى ..

كان عزوز كما عهده الناس ، يجلس طول النهار أمام البيت ، يخالط النسوة ، يقف على أغلب أسرار الناس التى تتناولها النساء فيما بينهن ، يعتمد فى حياته على مائدره إبنته زينب من بيع الزهور ، وجاء يوم بدأ الدخل يقل ، وتتعرض تجارة الزهور للخسارة ، والعلل تظهر على زينب فترقد فى الفراش لمدد تتراوح بين يومين أو ثلاثة ، تثور المشاجرات بينه وبين زوجته ، وفى الأعم حول كسب الرزق ، ودائما تردد على مسامعه : ياراجل إختشى على دمك ، قوم شوف لك شغلانة ..

- ياولية مش لاقى شغل ..

- إنت فاكر الشغل بييجى وإنت قاعد ..

يقول متضاحكا : ويعنى إللى إشتغلوا خدوا إيه ؟

- عليه العوض ومنه العوض ..

وأخيرا قررت تغيير النشاط ، باعت العربة والحمار ، واشترت ثلاث عربات يد صغيرة من ذوات الصناديق واستمالت ثلاثا من فتية الحى العاطلين ، أعطت كل منهم خمسة جنيهات ، وطلبت منهم شراء نفايات البيوت المستغنى عنها ، زجاجات، علب صفيح ، خرق بالية ، أحذية قديمة ، وغيرها من « الروبابكيا » .. وفى آخر النهار تجلس معهم للمحاسبة ، ثم تنفح كل منهم أجره ، وتقوم وابنتها زينب بفرز محتوى العربات الثلاث ، وتصنيفها ،ووضعها فى أجولة من الخيش .. كل يومين أو ثلاثة تأتى عربة المعلم درش ، وتحمل الأجولة ، وينفحها ثمنها ..

راقت عزوز هذه المهنة الجديدة ، وبدأ يعمل مع زوجته وابنته زينب فى الفرز والتصنيـــف ، نظير حصوله على نصيب من الدخل ينفقه على مزاجه الخاص فى تناول المشروبات الروحية ، وتقلب بين الغالى والرخيص ، فتارة يتناول الكونياك ، وتارة يتناول الكينا ، وأخرى السبرتو الأبيض ، وحين يصيبه الإفلاس يتناول البوظة، ويعود كل ليلة ، يتطوح يمنة ويسرة ، ولا تخلو ليلة من مشاجرة بينه وبين

بعض الشبان الذين يستهزؤون به ، ويسخرون منه ..

بمضى الزمن ، نسى عزوز حلمه فى إقتحام بيت أم سعد ، نسى الكنز الذى عول عليه فى تشييد إحلامه ببناء البيت ، وتزويج زينب ، وبدأت أحلام أخرى تراوده ، يتطلع نحو بيت أم عبدالله ، يسيل لعابه لرؤية نجوى فى خروجها ، أو دخولها ، أو وقوفها ، تلبسه شيطان الغواية ، وبدأ يلقى على مسامعها عبارات الغزل ، ينشط خيالـه ، وتقوى عزيمتـه وهى لاتصـده ، تضحـك ، تجلجـل ضحكاتهـا فتزلزل كيـانه كله ..

- أنا أتجوزك إنت ياسكرى ..

- ح أتوب والله .. بس قولى آه ..

ويقول فى لهفة : خلاص ، نتفق ..

تتخلص منه بسرعة : ياراجل .. دنا بااهزر ..

وتتركه فريسة للهفته ، وضحية لأحلامه ، يسكر من جديد وتنشط الأحلام ، تترا ءى له فى الصور التى يحبها ، والخيالات التى يعشقها يحقق مالا يستطيع تحقيقه فى الواقع ..

كان عزوز فى الحقيقة يفتقد التشجيع ، ولو أيده أحد فى تحقيق رغبته ، لدق الباب، وتقدم لأم عبدالله ذاتها طالبا يد إبنتها ، لكنه يخشى أن يتحول طلبه إلى مادة للسخرية ، والنكات ، وموضوع الحديث فى كل مكان ، وعلى كل لسان ،

واتته الفرصة ، وبثت فى نفسه الشجاعة ، حينما فوجئ أهل الحى بخبر زواج الشيخ أحمد خطيب مسجد سيدى عباس ..

كان الشيخ أحمد يلقى خطبة الجمعة كل أسبوع ، ويؤم المصلين ، وكانت خطبته لاتخرج عن موضوع واحد طول السنين ، حتى أن الناس أصيبوا بالملل ، ولايمتلئ المسجد إلا بعد الإنتهاء من الخطبة ، ولم يتخلف يوما عن أدائها ، ثم يجلس بعد الصلاة مع بعض المقربين منه ، الأستاذ حسنى ، المعلم شفيق قبل وفاته ، عم أحمد بائع الكشرى قبل سجنه ، ويلتقى بآخرين حين يجلس بالمقهى حتى موعد صلاة العصر من يوم الجمعة ، وكان دائما يلتقى بعزوز ، وينهره على تعاطيه الخمر ، ويوبخه ، يطأطئ عزوز رأسه ويقول : ربنا يتوب علينا ياسيدنا ..

كما كان أيضا يلح لمدة طويلة على المعلم عيد لأداء فروض دينه مرة إثر مرة ، ويتعلل المعلم عيد بالمحل ، وتواجد الزبائن الدائم طول النهار ، وجاء يوم عيد ، توافق مجيئه مع يوم الجمعة ، كان الجميع جلوس فى المقهى بعد تبادل التهانى بالعيد قال الشيخ أحمد : كل سنة وانت طيب يامعلم عيد ..

- وانت طيب ياسيدنا ..

- ان شاء الله تصلى معانا الجمعة ..

وجد المعلم عيد نفسه فى موقف حرج ، لايستطيع الإفلات منه فقال :

- إن شاء الله ..

كانت المرة الأولى والأخيرة التى دخل فيها المعلم عيد مسجد سيدى عباس ، وما أن انتهت الصلاة إكتشف أن حذاءه الشمواه الجديد قد سرق ، أرسل فى طلب حذاء آخر من البيت ، وقرر ألا يدخل مسجدا على الإطلاق ..

وجاء يوم جمعة تخلف فيه الشيخ أحمد عن الحضور ، وخلال تلاوة المقرئ لقرآن الجمعة ذهب الأستاذ حسنى للسؤال عن الشيخ فى بيته ، قابلته أم الأولاد قائلة فى سخرية : شيخ إيه ، البقية فى حياتك ..

إهتز الأستاذ حسنى ، وقال فى إنفعال : مات ..

قالت إمعانا فى السخرية : أكتر من الموت . .

وأردفت: إتجوز بنت سبعتاشر سنة .. شوفوا لكم شيخ تانى .. ماعدش ينفع ..

إستدل الأستاذ حسنى من بعض الصبيه على سكن الشيخ الجديد ، وهناك لقيه راقدا فى فراشه ، قال بصوت واهن : إتفضل ياأستاذ حسنى ..

وقف الأستاذ حسنى إلى جوار فراش الشيخ : مالك ياسيدنا ..

- مريض .. مش قادر أقف على رجليه ..

- سلامتك .. وايه اللى سمعته ده ..

- النصيب ياحسنى ..

دخلت زوجة الشيخ ، تطلع إليها حسنى مندهشا ، فتاة فى ربيع الشباب و غضة البنيان ، فتية الجسد والقوام ، قالت فى غضب :

- الكل مستغرب ، هو يعنى خرج عن الشرع ، ده إتجوزنى على سنة الله ورسوله ..

إستأذن الأستاذ حسنى ، وعاد إلى المسجد ، وقف أمام المصلين وقال :

- الشيخ أحمد تعبان شوية ، وأى واحد يقدر يقول خطبة الجمعة يتفضل ..

قام شاب فى حوالى العشرين من عمره ، وقال : أنا أقدر ياأستاذ ..

كان يعرفه أهل الحي ، طالب فى معهد دينى .. دعاه حسنى باسمه :

- تفضل ياشيخ على ..

ألقى الفتى خطبة طويلة ، شدت آذان الناس داخل المسجد وخارجه عبر مكبرات الصـوت ، إستحسن الجميع القاء ، بلاغته ، إستشهاده بآيات من القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة ، إجتمعوا على أن يكون ، فيما بعد خليفة للشيخ أحمد بعد عمر طويل .

ماأن خرج المصلون من المسجد ، تلقفت آذانهم خبر زواج الشيخ أحمد ، وصفه بعضهم بالجنون ، وبعضهم بالمراهقة على كبر ، وبعضهم طلب الاستغناء عنه ، وأن يحل محله الشيخ على ، فهو مزود بالعلم ، ولا يكرر لفظة واحدة مرتين ، ولا يصيبهم بالملل..

وجد عزوز فى زواج الشيخ أحمد سبيله ، ومشجعه على التقدم لنجوى ، وبالفعل ، جاءت أمسية إمتنع فيها عن الشرب واغتسل ، إرتدى جلبابه الذى يحتفظ به للمناسبات ، كالأعياد وحضور بعض حفلات الزواج ، واتخذ طريقه إلى بيت أم عبدالله .. دق الباب .. دخل ، إستقبلته أم عبدالله : خير ياعزوز ..

- خير ياأم عبدالله ، إنت طبعا جارتنا ، وتعرفينى كويس ..

- إنت زى أخويا ياعزوز ..

قال عزوز مبتسما : ونفسى أكون جوز بنتك ..

قالت أم عبدالله فى استغراب :

- نجاة بنتى ..

- لا نجوى ياأم عبدالله ..

تنهدت فى ألم : آه إنت عايز نجوى ..

– أنا عارف إن ماحصلش وفاق بينها وبين على كشك ، ومن ساعة ماطلقها وهوه عمال يحرجم عشان يرجع لها تانى ، قلت فى عقل بالى أتجوزها وأقطع فرطه خالص ..

– الحقيقة كان بودى ، لكن الأمر أمرها ، وشورتها من دماغها ، إنت حر معاها ..

كانت نجوى فى الخارج لأمر من أمورها ، عادت وعزوز يتحدث إلى أمها ، قالت فى ثورة : إللى عايز يتكلم علىّ يكلمنى أنا .. أنا مش صغيرة ..

قال عزوز : إللى قبلنا قالوا إللى مالوش كبير يشترى له كبير ..

قالت على الفور : أنا كبيرة نفسى .. وبعدين على ح يردنى بس أما يلاقى شغل .. إحنا إتفقنا على كده ..

قال عزوز وهو يتأهب للخروج : خلاص يابنت الناس ، جحا أولى ..

ولم يكمل إذ صاحت نجوى : حسن ملافظك ياعزوز ..

قال عزوز متصنعا الضحك : أنا متأسف .. أنا غلطان ..

وجد عزوز زوجته فى إنتظاره جالسة على جمر من النار ، قامت وأمسكت بتلابيبه : بقى ياراجل ، رايح تتجوز ..

قال عزوز وهو يحاول الإفلات من قبضتها : أنا حر ، والشرع معايا ..

تركته صائحة : طيب والله العظيم ماانت نايم فى البيت الليلة ..

دخلت وأغلقت الباب وراءها فى عنف ، ودفعت بالترباس وهى تشتم وتسب ..

بات عزوز ليلته فى مسجد سيدى عباس مع خادم المسجد الهرم ..

(٢٩)

بدأ المعلم عيد بعد موت سعاد يشعر بحريته ، ينطلق على سجيته ، تهدمت جدران السجن الذى عاش فيه لسنوات لايدرى عددها ، الوضع باق على ماهو عليه ،

ماعدا بعض المناوشات مع بطه وزوجها حول الميراث ، يتفقون فى جانب ويختلفون فى آخر .. تقف بطه وزوجها فى قفص الإتهام بسرقة مصوغات أمها ، تدافع عن موقفهما بأن المصاغ من حق الإبنة ولا نصيب لأحد فيه ويحبذ المعلم عيد قسمة كل شئ حسب الشرع والقانون .. تعقد المجالس وتنفض دون اتفاق .. ويبدأ كل طرف يفكر فى الحصول على النصيب الأوفر ..

إستغل المعلم عيد يوم عطلة وسافر إلى المنصورة ، إلتقى وصاحب الأرض التى إشتراها مناصفة بينه وبين سعاد ، ودفع ثمنها بالكامل ، حاول إستمالة الرجل لتغيير عقد البيع ليكون باسمه فقط ولم يفلح ، وبعد مفاوضات عسيرة وافق الرجل نظير دفع مبلغ ألف جنيه أخرى .. وبعد الإتفاق تحرر العقد الجديد ، وأشعل المعلم عيد النار فى العقد القديم ، عاد غانما ليقضى سهرة من سهراته الماجنة فى البيت مع بعض زملائه فى المهنة ، يتقارعون كؤوس البيرة المثلجة ، ويتبادلون أنفاس الجوزة المخدرة ، يتقاسمون الحمام المشوى ، والفراخ المحمرة ، تصل قهقاتهم القاصى والدانى .. ولم تحن بعد ليلة الأربعين على موت سعاد تلك الميتة الشنيعة..

لم يدرك المعلم عيد العيون التى ترصدت خطاه ، اذ سرعان ماوصل رسول من المنصورة وقصد بيت بطة ، نقل إليها خبر تواجد المعلم عيد بالبلدة ، على الفور نبت الشك فى قلب ورأس بطة ، وأمرت زوجها بالسفر إلى المنصورة للوقوف على جلية الأمر ، وحين عاد أنبأها بما حدث .. قصدت بطة دكان زوج أمها ، بعد التحية قالت : مش عيب يابا تعمل كده ..

- أعمل إيه يابنت ..

- تروح وتغير عقد الأرض ..

قال فى عنجهية : مالى ورجع لى ..

- ده يبقى تزوير ..أنا مش ح اسكت ..

- أعلى مافى خيلك إركبيه .. واتفضلى من غير مطرود ..

نقلت بطة ماحدث بالحرف والكلمة لزوجها عادل الذى عقب قائلا :

- طيب .. هو الجانى على نفسه ، إن ماخليته يلف حوالين نفسه مابقاش عادل ..

وقام فى لحظته بالذهاب إلى كاتب محامى صديق له ، واتفقا على رفع قضية

تزوير واتهام المعلم عيد بالتواطؤ مع صاحب الأرض على تغيير محرر رسمى ، واتفقا أيضا على مناوشة المعلم عيد بالحق أو بالتحايل لإثارة قلقه ، وإقلاق راحته وتحديد إقامته فى المكان الذى يسلم فيه بكل مايريدون ..

فوجئ المعلم عيد وهو فى الدكان بأحد مخبرى قسم الشرطة يقدم إليه طلبابالمثول أمام وكيل النيابة ، حاول الإستفسار عن السبب قال المخبر :

– ماعلى الرسول إلا البلاغ .. ح تعرف كل حاجة قدام وكيل النيابة ..

أرسل المعلم عيد فى طلب محاميه ، صحبه معه إلى قسم الشرطة ، وفوجئا ببلاغ قدمته بطة تتهم فيه زوج أمها بتهمة القتل ، وصدر قرار وكيل النيابة بحبسه أربعة أيام على ذمة التحقيق ، وقرار آخر باستخراج جثة سعاد وتشريحها وتبين سبب الوفاة ..

هدأ المحامى ثائرة المعلم عيد ، مهونا مدة الأربعة أيام – مؤملا فى ظهور البراءة بإذن الله ..

كان أحمد يعيش مع أبيه فى تلك الأيام ، وما أن إحتجز وكيل النيابة المعلم عيد، إحتضنت بطة أحمد ، وأخذت تستميله للإقامة الدائمة معها ، وزين له عادل شكل الحياة ، والحرية بعيدا عن أبيه ، ملأ رأسه ببشاعة الجرم الذى إرتكب فى حق أمه ، وبين يوم وليلة أصبح أحمد معهم فى جبهة واحدة ضد أبيه ..

تغير وجه الحياة فى بيت بطة ، وبعد أن جرد عادل ذراع حماته من مصاغها ، بدأ ينتعش جيبه ، بدأ يغير بعض قطع الأثاث ، إشترى تليفزيونا وثلاجة وغسالة ، بدأ يهمل عمله ، ويتكرر غيابه عن المدرسة ، بدأ يقيم السهرات الحمراء فى بيته ، يشترك أحمد معه فى تناول الخمور والمخدرات ، تعترض بطة على أسلوبه الجديد فيكون نصيبها علقة ساخنة ، تضع همها بين جوانحها وتلوذ بالصمت ..

بدأت معركة المحامين فى ساحة القضاء بعد خروج المعلم عيد بريئا من الإتهام بقتل زوجته ، كل طرف يكيد للطرف الآخر ، يتقدم عادل فى براءة الذى لايعلم شيئا، يحاول التقرب من المعلم عيد ، بقصد تقريب وجهات النظر ، وفض المنازعات التى لاطائل من ورائها ، يلوم أمامه زوجته بطة فى تسرعها ، ويحملها كافة الشرور متهما إياها بالجحود مع الرجل الذى رباها ، وزوجها ، وصرف عليها دم قلبه ، وينتهى بأنها إمرأة ناقصة عقل ودين ، دفعت بها النسوة إلى طريق لاتعرف منتهاه ..

يلجأ عادل أيضا إلى الأستاذ حسنى ، مستغلا الصداقة التى تربط بينه وبين المعلم عيد ، تجتمع الأطراف المتنازعة ، وتؤدى بطة دور أمها خير تمثيل لتكسب عطف زوج أمها :

- أنا لحم كتافى من خيرك ، ولو خلعت إللى فى رجليك وضربتنى به لك الحق ، أنا غلطت ، سامحنى يابا ..

يقول المعلم عيد : ولما إنت عارفه كده ، تتهمينى بقتل أمك ..

- معلهش ، غلطة إنى سمعت كلام الناس .. أنا عارفة إن قلبك كبير وح تسامحنى ..

يقول عادل : الحقيقة أنا ماكنتش عاوز أتدخل ، لكن أما لقيتها عماله تعك وقفتها عند حدها ، وقلت لها حتى إن ماورثتيش حاجة ، كفاية إنه جوزك ، وفرش شقتك ، وعمره ما ح يفكر يطردك من البيت أو يدفعك إيجار ..

يعلق حسنى قائلا : ماكان من الأول ، كنتم وفرتم على نفسكم فلوس المحامين ومطالبهم ..

يقول المعلم عيد : هى ، لو جاتنى من الأول وقالت لى أنا عايزة ده ، ونصيبى يكون ده ، ماكنتش ح أتأخر ، دى زى بنتى وأكثر ..

بعد العديد من الجلسات المتشابهة ، يصفو السطح الظاهر أمام الناس ، ويتم توزيع الإرث على الأطراف كلها حسب الشرع والقانون ، ويبقى نصيب أحمد فى حوزة أبيه بصفته وصيا عليه ، وفى نفس الوقت يرفض أحمد الحياة مع أبيه ويفضل الحياة مع أخته ، ويشترط أبوه قيامه بالعمل معه فى الدكان بعد فشله فى الدراسة ليكون تحت رعايته حتى يبلغ سن الرشد ويتسلم ميراثه وله بعد ذلك مطلق الحرية ، ووافقت بطة بعد موافقة عادل ، وكل طرف يضمر فى نفسه إستغلال أحمد كجاسوس لدى الطرف الآخر ، وقام أحمد بدور الجاسوس المزدوج خير قيام ..

(٣٠)

إقترب موعد الإحتفال بمولد سيدى عباس ، يبدى الجميع إهتماما غير عادى به على عكس السنوات الماضية ، حيث كان يكتفى ببعض الزينات ، تجتمع فرقة الإنشاد الدينى داخل صحن المسجد تنشد التواشيح والأدعية ، ساعة أو يزيد قليلا وينفض المولد ..

يجئ الإحتفال هذا العام ويشهد تغييرا جذريا فى الحى ، بعد أن أصبح الشيخ على مسؤولا عن المسجد ، أنشأ جمعية خيرية بإسمه ، وبأسهم لأهل الحى وإشتراكات شهرية بواقع عشرة قروش لكل فرد ، ومن حصيلة هذه الإشتراكات بدأ يدخل التحسينات على المسجد ، تبارى المتيسرون وأغلبهم من الذين سافروا للعمل بالخارج .. فى التبرع ، بعضهم بمراوح كهربائية ، بعضهم بفرش أرضية المسجد بالموكيت ، بعضهم باصلاح دورة المياه وتجديدها تبرع بعضهم بعملية الطلاء كاملة، ولايدرى أحد سر الصحوة التى ألمت بالناس ..

يحلل البعض ذلك بأنه يرجع إلى زيادة دخول الأفراد من عائد سفرياتهم ، والرغبة فى الظهور بمظهر البر والإحسان ، والبعض الآخر يرجع ذلك إلى عودة الوعى الدينى بعد اعتلاء الشيخ على منبر المسجد ، وحض المصلين على التمسك بدينهم ، وعدم مسايرة مغريات دنياهم الفانية ، والبعض الثالث يعود بالسبب إلى حرية الدين وحرية إقامة الشعائر ، وحرية الإنسان عن نفسه أولا وأخيرا ..

يذكر بعض الذين كان لديهم الوعى وعلى رأسهم الأستاذ حسنى ، وكامل ما أصاب الحى حين تم القبض على خيرة أبنائه الصالحين تحت دعوى أنهم من الخارجين على القانون والنظام العام ، عاشت أغلب بيوت الحى فى حزن مقيم ، وألم كبير لغياب إبن أو أب أو زوج ، كما يذكرون هوجة القبض على كل من أطلق لحيته ، ، شهد دكان الحلاق رواجا ما حلم به ، يكفيه أنه شيد بيتا بالطوب الأحمر بعد أن كان يعيش فى بيت قديم بنى بالطوب الطينى ، يذكر الواعون ، والمدركون لحركة الحياة داخل المجتمع زمن الفرقة ، الفرد يخاف من الفرد ، الكل يخاف من الكل ، الكل يتجسس على الكل ، ودخلت الفرقة البيوت من أبوابها ، الأب يخشى جانب إبنه ، والأخ يخشى جانب أخوه ، وطوى كل فرد سره ، حزنه ، فرحه ، ألمه فى طيات نفسه يخشى أن يبوح بها حتى لنفسه ..

يذكر الأستاذ حسنى الإستهانة بالدين فى سبيل مغنم رخيص ، حين إجتمع وتسعة

من أعضاء الإتحاد وأقسموا وقرأوا فاتحة الكتاب على الدخول معا الإنتخابات فى قائمة واحدة ، واكتشف بعد ذلك أن ثمانية من التسعة حنثوا بأيمانهم ، وإنضموا إلى قوائم أخرى ..

ويذكر كامل أن الأستاذ حسنى نفسه ظل يعمل فى السياسة ، ويضحى بوقته وماله حتى استطاع عن طريق علاقاته الشخصية قبض التعويض عن أرض زوجته قمر التى استولت عليها الحكومة وأقامت عليها نادى الشباب ، وما أن قبض التعويض حتى طلق السياسة ، ولم يعد يتحدث فى أمورها ..

يذكر الناس البسطاء رخص المعيشة ، تكاليف الحياة فى متناول الجميع ، الجميع متساوون فى الدخول ، فى أسلوب الحياة ، وعلى العكس يرى أبناؤهم خارج الحى حياة أخرى ، يرون السيارات الفاخرة ، الملابس الأنيقة ، الإحتفالات المهيبة ، يكتشف هؤلاء الأبناء أنهم فى ذيل قائمة الإهتمامات ، وفى أسفل درجات سلم المجتمع ، يئس أغلبهم من التعليم المجانى وإتجهوا إلى تعلم الحرف ، وسافروا حين سنحت لهم الفرص إلى ليبيا ، غنموا الكثير ، غيروا حياة أسرهم ، عرفت الرفاهية طريقها إلى بيوتهم ، إنطلق مارد عدم الرضا بالواقع ، بل التمرد عليه ، وأهتزت أركان البيوت الراسخة تحت ثقل التجديدات والإرتفاعات ، ودق الأعمدة الخرسانية فى البيوت المجاورة التى أهدمت لتشيد من جديد .. بدأ سباق العمران زحفه ، وانتهى وقد تغير الحى القديم تماما وإن بقى بعض الآثار ، مسجد سيدى عباس ، بيت أم سعد المهجور ، مقهى الشجرة ..

بدأت الإستعدادات للمولد ، إمتلأت ساحة «الجرن» باللعب التى تستهوى الكبار والصغار ، المراجيح ، الزقازيق ، ألعاب القوى ، ألعاب الرماية ، خيال الظل ، السيرك الصغير ، خيمة الراقصة ، كما امتلأت أجناب الساحة بالباعة الذين وفدوا من كل حدب وصوب ، علقت الأنوار والزينات ، وتحول ليل الحى إلى نهار لعدة أيام متتالية ..

إتخذ المسجد رونقه إستعدادا لليلة الكبيرة ، خرجت صوانى الأطعمة واللحوم من كل البيوت ، والحلوى ، وارتدى كل أهل الحى الملابس الجديدة ، يبدو الإهتمام على الكبير والصغير ، وتبدو النساء فى أحلى زينة ..

وقف كامل فى الشرفة يتطلع فى عجب ، لو كان يملك كاميرا لإلتقط العديد من الصور ، لو كان ذا سلطة لدعا علماء النفس للوقوف على سر هذه الظاهرة ، لمح

سماح خارجة من باب البيت ، أشار لها بمجرد أن رفعت رأسها نحوه ، غادر الشرفة ، وقف أمام باب البيت ، جاءت إليه ، قال : إنت ح تشتركى فى المهزلة دى ..

قال مبتسمة : عندك حاجة تانية ..

- أنا مسافر بكرة ..

إغتمت سماح ، بدا الكرب على وجهها ، نهتت بعض الدموع فى عينيها ، قال كامل مردفا : مافيش مفر .. كل إللى إنت شايفاه ده فلوسه من بره ..

قالت فى شبه توسل : خليك هنا .. رب هنا رب هناك ..

- وربنا قال إسعى ياعبد وأنا أسعى معاك ..

وضعت يدها على صدرها وقالت : وأنا ياكامل ..

تردد كامل قليلا ، قال فى تؤدة :

- إنت ، مااقدرش أربطك لحد ماأرجع ، ومش عارف ح ارجع إمتى ..

- وحبنا ..

- حبنا إتولد ، لكن للأسف مانملكش رعايته .. حبنا عايز شمس وميه وهوا ، عايز بيت وفلوس وعفش ومصاريف ، ح نجيب منين ..

قالت وهى تسند ظهرها إلى الحائط : نعيش على قدنا ..

- ونحسد غيرنا .. نحقد على إللى معاه فلوس بيبعزقها .. نحسد إللى عنده ثلاجة وغسالة وبوتاجاز ..

- أنا مش عايزه الحاجات دى ..

- لكن أنا عايز ، عايز أفضل بكرامتى ، إللى فشلوا فى الأول نجحوا فى الآخر ، وأنا نجحت فى الأول أفشل فى الآخر ..

- إنت ياحبيبى ناجح على طول ..

- طول ماجيبى فاضى أبقى فاشل على طول الخط ..

قالت مستاءة : يعنى مافيش فايده ..

- أنا ماكنتش عايز أكلمك خالص ، لكن خفت تقولى غدر بيه .. إنت حرة ياسماح .. أى إنسان مناسب يتقدم لك إقبليه فورا ..

ضغطت يدها مكان القلب من صدرها وتنهدت : يعنى أموت قلبى تانى ..

- كل الناس قلوبها ماتت ، مايغركيش الهيصة دى ..آخر الليل شوفى ح يحصل إيه .. مع السلامة ياسماح ..

- مع السلامة ياحبيبى ، ربنا يكتب لك فى كل خطوة سلامة ..

صعد كامل إلى نافذته ، وعادت سماح إلى حجرتها ، يشعر براحة الضمير ، فلايعلم ماتخفيه عنه الأيام ، وانكفأت سماح على فراشها تبكى طيلة الليل ..

مع تباشير الصباح ، إنفض المولد ، وبدأت المواجع ، إمرأة تصرخ ضاع قرطها الذهبى ، رجل يضرب كفيه نشلت حافظته .. أم فتاة تولول اعتدى مجهول على ابنتها فى زقاق مظلم ، هرج ومرج بيت سطا اللصوص عليه ، أولاد تائهون ، نساء عبثت الأيدى بأجسادهن ، رجال جردوا من ساعات أيديهم ..

سأل كامل نفسه وهو يرتدى ملابسه : إيه اللى مقعدنى فى الحى ده وزملائى كلهم خرجوا منه بمجرد مااشتغلوا .. ؟؟

رد على نفسه : أنا إتربيت فيه ، كنت صغير وقريت إسمه على الخريطة ، يحيط به مشايخ بيتبارك الناس بيهم من المؤمنين الأول ، حتى أما أسافر وربنا يكرمنى ح أرجع أعيش فيه ، ماأقدرش أعيش فى حتة تانية ..

وقف كامل يودع أسرته، والدموع الحبيسة تحفر لها أخاديدا ، لكن إلى الداخل تعود، لها طعم الملح ، ومذاق نبات الصبار المر ، ألقى نظرة أخيرة ، وأولى الحى ظهره ..

بسم الله الرحمن الرحيم

* جمعة محمد جمعة

عضو اتحاد الكتاب - نادى القصة - جمعية الأدباء - جمعية أنصار حقوق الإنسان - رابطة الأدب الحديث .

*** حصل على :**

- جائزة مجمع اللغة العربية عام ١٩٧٥ عن قصة (قلب الأم)
- جائزة نادى القصة عام ١٩٧٧ عن قصة (العدو تحت ضوء القمر)
- جائزة محمود تيمور عام ١٩٩٣ عن مجموعة قصص (حياة رخيصة)
- جائزة احسان عبدالقدوس عام ٩٣-١٩٩٤ عن رواية (المراهقون)

*** صدر له :**

- الأبيض والأسود	قصص	١٩٧٧
- قلب الأم	قصة	١٩٨٣
- مهزلة عائلية	مسرحية	١٩٨٧
- حياة رخيصة	قصص	١٩٩٢
- هى إمرأة	قصص	١٩٩٤
- المراهقون	رواية	١٩٩٨

*** تحت الطبع :**

- أهلا ياعمدة	مسرحية
- الأيدى الدائنة	قصص قصيرة